جورج أمادو

فارس الرمال

ترجمة محمد عيتاني

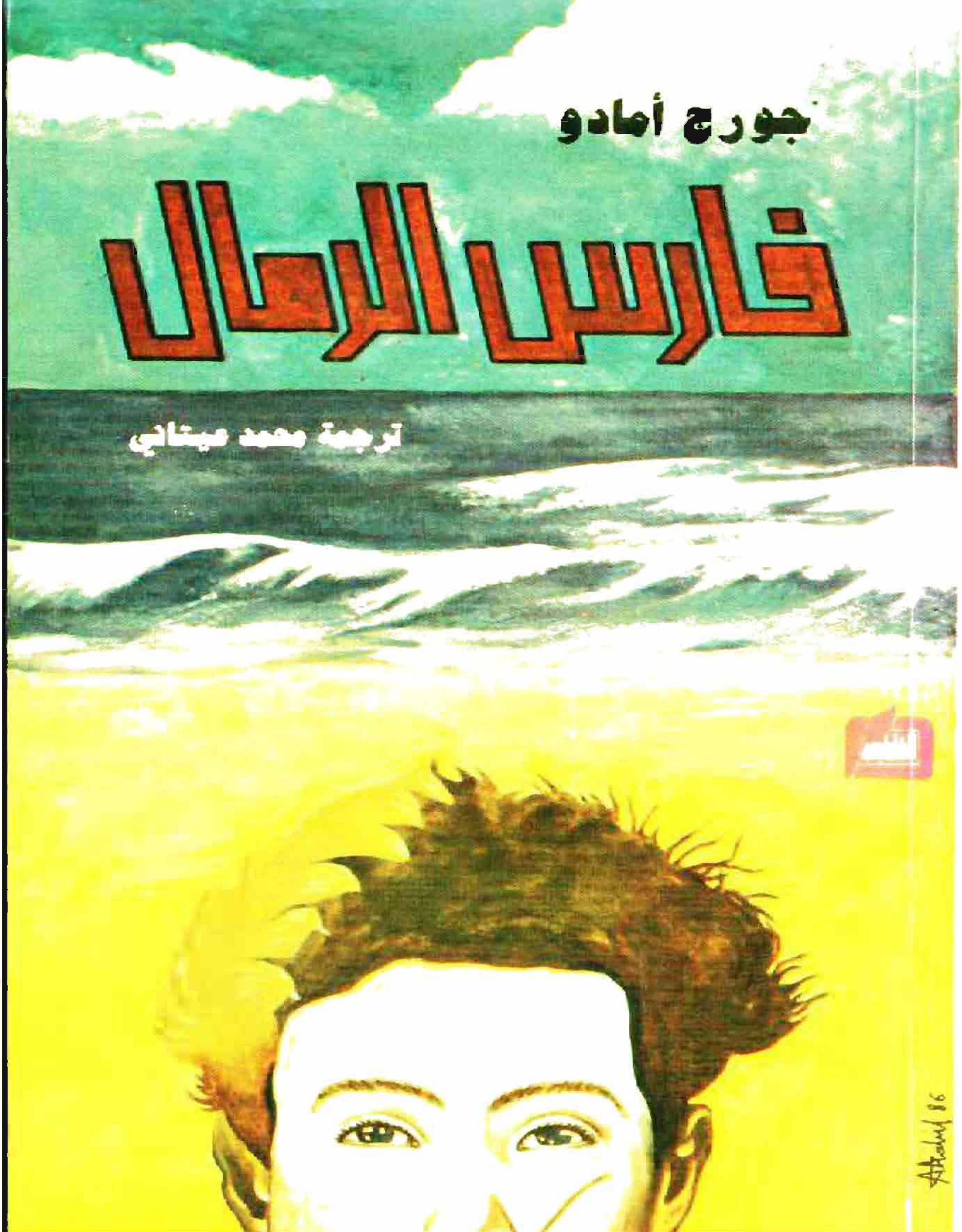

جورج أمادو
فارس الرمال

الى الاصدقاء
بدر

رسالة من السيد قاضي الأحداث
إلى هيئة تحرير «صحيفة المساء»

السيد مدير «صحيفة المساء» مدينة سلفادور، ولاية باهيا

مواطني العزيز

تحيات طيبة

اني لدى تصفحي صحيفتكم في احدى الهنيهات النادرة من الفراغ التي تتركها لي مشاغلي المتعددة والمتنوعة في وظيفتي المرهقة. اطلعت على رسالة من حضرة قائد شرطة الولاية الذي لا يكل في تقديم جهوده لخدمة العدالة وراحة المواطنين، ويعرب في رسالته هذه عن الدوافع التي لاجلها لم تتمكن الشرطة حتى هذا اليوم من تشديد الحملة القيمة ضد أولئك الأولاد الخائنين الذين يعيثون فساداً في مدينتنا ويشيعون فيها ما يشبه الوباء من الجرائم والارتكابات المختلفة. ويبرر السيد قائد الشرطة موقفه باعلانه بأنه لم يكن يملك أمراً من محكمة الاحداث لاجل القيام بعمل موجه ضد جرائم الأولاد وجنحهم. واني، دون رغبة مني في أن اضع المسؤولية بأي حال من الاحوال على قيادة الشرطة الرائعة والتي لا تكل، أرى نفسي ملزماً، في صالح الحقيقة (هذه الحقيقة ذاتها التي نصبتها كمنارة تضيء طريق حياتي بضوئها النقي جداً) بأن اعلن بأن العذر الذي ابداه قائد الشرطة غير صحيح. انه غير صحيح، يا سيدي المدير، لأنه لا يدخل في صلاحيات محكمة الاحداث مطاردة واعتقال الاحداث القصّر الجانحين، بل أن صلاحيتنا هي تعيين المكان الذي عليهم قضاء فترة عقوبتهم فيه، وتعيين قيّم لمتابعة أية محاكمة يقدمون اليها الخ. ولا يعود لصلاحية محكمة الاحداث القبض على الجانحين الصغار، بل أن صلاحيتها تقوم في السهر على مصيرهم اللاحق (أي بعد اعتقالهم اثر جرائمهم أو جنحهم). وإن على السيد قائد الشرطة أن ينتظر الانتقاء بي في المكان الذي يدعوني اليه الواجب ذلك لانني طوال خمسين عاماً من حياتي النقية الناصعة، لم

اتلكأ أو أتأخر أو أتردد في تنفيذ واجبي

كما أنني، خلال الأشهر الأخيرة المنصرمة، ارسلت إلى دار الاصلاحية عدة أحداث جانحين أو متشردين. وليس خطأي اذا كان هؤلاء الأولاد الاشقياء يفرون وإذا لم يكونوا يستفيدون من ميادين العمل التي يجدونها في هذه المؤسسة التربوية، وبالتالي فإنهم يحلمون عن جو يتمتعون فيه الامن والعمل، وحيث يعاملون بأكثر عطف. إنهم يفرون من الاصلاحية ويصبحون أكثر فساداً أيضاً، وكأن المثال الذي تلقوه كان سيئاً وضاراً. لماذا؟ إن هذه مشكلة يعود حلها إلى علماء النفس وليس إليّ الذي لست سوى فضولي صغير يهتم بالفلسفة

وما أريد أن أجعله واضحاً كالبلور، هو أن السيد قائد الشرطة يستطيع الاعتماد على أفضل دعم من محكمة الاحداث لتشديد الحملة ضد الاحداث الجانحين أو المجرمين

أبي أخص سعادتكم اعجابي وتقديري

قاضي الأحداث

(نشر في «صحيفة المساء» مع صورة لقاضي الأحداث وتعليق اطرائي صغير)

رسالة من أم «خياطة»
إلى هيئة تحرير «صحيفة المساء»

سيدي المحرر

اعذروني للاخطاء الاملائية والنحوية، نظراً لأنني غير معتادة على مسألة الكتابة، وإذا كنت أوجه اليوم اليكم، فلذلك لأجل وضع النقاط على الحروف. لقد رأيت في الصحيفة، مقالاً عن سرقات «فرسان الرمال» واثر ذلك على الفور جاءت الشرطة لتقول بأنها ستلاحقهم وحينئذ جاء السيد قاضي الاحداث ليذكر أن من سوء الحظ كثيراً أن هؤلاء الأولاد المعتقلين لا يصبحون افضل في الدار الاصلاحية التي كان يرسل اليها الاولاد المساكين. ولأجل الحديث عن دار الاصلاح المذكورة اكتب هذه السطور بخطي الرديء. واتمنى أن ترسل صحيفتكم اقدر محرريها ليرى الدار المذكورة ولكي يرى كيف يعامل أولاد الفقراء الذين شاء سوء حظهم أن يبقوا بين جدران تلك

الدار العديمة الروح والرحمة. لقد قضى ولدي التعس هناك ستة اشهر ولو لم اتدبر المسألة لاخراجه حياً من هذا الجحيم لست ادري ما إذا كان المسكين سيستطيع أن يعيش هناك ستة أشهر أخرى دون أن يموت. إن اقل ما يتعرض له أولادنا في تلك الدار الاصلاحية هو أن ينالوا ضربات تنزل بهم مرتين أو ثلاث مرات كل يوم. إن مدير ذلك المكان يقضي حياته في شرب الخمر إلى حد أنه يتدحرج على الارض وهو يحب أن يرى السوط يلعلع على جسمات اولادنا. وقد رأيت هذا المشهد مراراً عديدة، لانهم لا يهتمون بنا. وهم يقولون انهم يفعلون ذلك لتربية الولد بالمثل الصالح. لهذا أخرجت ولدي من هناك. وإذا أرسلت صحيفتكم إلى هناك شخصاً بالسر، فسوف يستطيع أن يرى نوعية الغذاء الذي يناله المساكين الصغار، والعمل العبودي الذي يرغمون على القيام به، وليرى كيف أن رجلاً مكتمل الرجولة لا يستطيع احتمال الضربات وأعمال السخرة التي تصيب الاطفال. ولكن لاجل رؤية هذه المشاهد، يجب أن يذهب أحد محرريكم إلى هناك بصورة سرية وإلا إذا علم المسؤولون عن السجن بوجود مندوب صحفي فإنهم سيظهرون المكان وكأنه جنة مشرعة الابواب للنعيم. اذهبوا إلى هناك فورا وسترون من الذي يقول الحق. ولأجل هذه الاشياء، وغيرها أيضاً يوجد «فرسان الرمال». وأفضل أن أرى ولدي بينهم، على رؤيته في تلك الدار الاصلاحية الدائمة الصمت. واذا اردتم رؤية شيء، اذهبوا إلى هناك. وكذلك، اذا كنتم تريدون، تستطيعون التحدث مع الاب جوزيه بيدرو الذي كان كاهناً هناك، ورأى كل ما تحدثت عنه. وهو يستطيع أيضاً أن يروي ذلك وبعبارات افضل، لست املكها.

ماريا ريشاردينا - خياطة

(نشر في الصفحة الخامسة من «صحيفة المساء» بين اعلانات، وبدون صورة ولا تعليق)

رسالة من الأب جوزيه بيدرو إلى هيئة تحرير « صحيفة المساء »

السيد مدير تحرير « صحيفة المساء »
تحيات على اسم يسوع المسيح

قرأت في صحيفتكم ذات الشهرة الكبيرة رسالة ماريا ريشارديننا التي تذكرني بصفتي شاهداً قادراً على تقديم ايضاحات حول حقيقة حياة الاولاد المحبوسين في « الدار الاصلاحية » وأنا مضطر للخروج من الظلام الذي اعيش فيه ، لأقول لكم بأنه ، لسوء الحظ ، ان ماريا ريشارديننا هي على حق ، إن الاولاد في الدار الاصلاحية موضوع الحديث يعاملون كما تعامل الوحوش الضارية ، هذه هي الحقيقة . لقد نسي درس السيد المحرر اللطيف جداً . وبدلاً من كسب ود الاولاد ، بطرائق طيبة ، فإن المحافظين يخضعونهم اكثر فأكثر ، لعمليات ضرب متواصلة ، وعقوبات حديدية ، عبر اساليبه . وقد قمت بزيارة تلك الدار الاصلاحية لاحمل إلى الاولاد تعزيات الدين ، وقد وجدتهم في قمة الاستعداد لتقبلها . وذلك طبعاً نتيجة للبغضاء التي تتراكم في هذه القلوب الفتية . الجديرة كثيراً بالشفقة وإن ما رأيته هناك ، يا سيدي المدير ، يمكن أن يقدم محرري كتاب كامل . مع الامتنان الكبير لانتباهكم من خادم المسيح

الآب جوزيه بيدرو

(رسالة نشرت في الصفحة الثالثة من « صحيفة المساء » تحت عنوان « هل هذا صحيح ؟ » وبدون تعليق) .

رسالة من مدير الدار الاصلاحية إلى هيئة تحرير « صحيفة المساء »

السيد رئيس تحرير « صحيفة المساء »
تحياتي
لقد تابعت باهتمام كبير الحملة التي تشنها الصحيفة اللامعة في باهيا ، هذه الصحيفة

التي تديرونها بذكاء قوي جداً ، ضد الجرائم المفزعة لـ « فرسان الرمال » وهي عصابة من الاولاد الجانحين والمجرمين التي تخيف المدينة وتمنعها من العيش باطمئنان . وعلى هذا النحو قرأت رسالتيّ اتهام ضد المؤسسة التي أديرها ، والذي يمنعني التواضع ، والتواضع وحده حضرة السيد المدير ، من أن أصفها بـ « النموذجية » . وبالنسبة للرسالة التي وجهتها امرأة طيبة من الشعب ، فلست اهتم البتة بها فهي لا تستحق أن أرد عليها ولا شك . وهي احدى النساء الكثيرات جداً اللواتي يأتين ويردن الحيلولة دون تحقيق للدار الاصلاحية للمهمة المقدسة لتربية أولادهن . وهن يربينهم في الشارع . وفي الوحل . وحين يخضع هؤلاء الاولاد عندنا لحياة نموذجية ، فإن هؤلاء النساء ، هن أول من يشتكي في حين أن عليهن أن يقبلن أيدي الذين يصنعون من أولادهن رجالاً جديرين وهن يبكين بدل ذلك ويأتين بنداء تطلب الحصول على مكان لأولادهن وإثر ذلك تنتقل التهم وهم يشتغلون أيضاً إلى نتاج السرقات الذي كان الاولاد يحضرونه إلى البيت ويتنهي بهن الأمر إلى الاحتجاج ضد الدار الاصلاحية ولكن كما سبق لي القول ، سيدي المدير ، فإن هذه الرسالة لم تثر اهتمامي ، انها ليست من امرأة صبة من الشعب ، التي ستفهم العمل الذي احققه ، على رأس هذه المؤسسة ، وإن ما أثار ارتياعي ، يا سيدي المدير ، هو رسالة الاب جوزيه بيدرو ، رجل الدين هذا الذي ينسى وظائف رسالته ، وينطلق بالهجوم ضد المؤسسة التي أديرها ، موجهاً اليها اتهامات خطيرة . ان هذا الكاهن (الذي اسميه كاهن الشيطان ، إن سمحت لي بمزحة صغيرة يا سيدي المدير) والذي استغل وظيفته للدخول الى مؤسستنا التربوية في أوقات ممنوعة في النظام الخاص بهذه المؤسسة ، ولدي ضده شكوى جدية ، أريد أن أسمعها . لقد حرض الاولاد القاصرين الذين عهدت الدولة بهم اليّ ، على التمرد والعصيان ومنذ أن دخل إلى هذه الدار ازدادت حالات التمرد ومخالفة الانظمة . إن الكاهن موضوع الحديث ليس سوى محرض ، ذي طبع سيء شرير . يقوم بتحريض الأولاد القاصرين الموضوعين تحت حراستي ولأجل هذا ، أريد أن أمنعه من الدخول إلى دارنا الاصلاحية .

ومهما يكن يا سيدي المدير ، فإنني انسى حساباتي كلمات الحياطة التي كتبت إلى هذه الصحيفة . وأنا الذي اطلب اليكم أن ترسلوا محرراً إلى « الدار الاصلاحية » وإنني اعتبر هذه مسألة تخصني شخصياً ، وسيكون في وسعكم على هذا النحو ، ومعكم جمهور القراء أن تحصلوا على معرفة دقيقة وصادقة وثقة حقيقية حول كيف يعامل الاولاد القاصرون الذين تتجدد نفسياتهم ويحققون التحسن في الدار الاصلاحية للأولاد

تحت ضوء القمر
في مستودع قديم مهجور

المستودع

تحت ضوء القمر . في مستودع قديم مهجور ، كان الأولاد نائمين

في الماضي كان هنا البحر وعلى الحجارة الكبيرة السوداء لأسس المستودع ، كانت الامواج تتحطم تارة في دوي وطوراً تأتي لتضرب الحجارة بلطف. وكان الماء يمر من تحت الجسر ، الذي يرقد تحته الآن أولاد عديدون ، تضيئهم خصلة صفراء من ضوء القمر ومن هذا الجسر ، خرجت سفن شراعية لا تحصى ، مع شحناتها وكان بعض هذه السفن هائلة الضخامة ، مدهونة بألوان عجيبة ، تمضي إلى مغامرات الاجتيازات البحرية وهنا كانت تأتي السفن لملء عنابرها السفلى ، والرسو تحت الجسر ذي الألواح المتآكلة اليوم وفي الساحل . أمام المستودع ، كان يمتد سحر البحر الاوقيانوسي ، وكانت الليالي امامه خضراء معتمة ، شبه سوداء ، بهذا اللون الغامض السحري الذي هو لون البحر في الليل .

واليوم يرى الليل صبراً تجاه المستودع ، وذلك لأنه تجاه الليل تمتد الآن رمال أرصفة المرفأ وتحت الجسر ، لم تعد هناك هدير للأمواج لقد اجتاحت الرمال كل شيء وأرجعت البحر عدة امتار وشيئاً فشيئاً ، وببطء . غطى الرمل واجهة المستودع ولم تعد السفن الشراعية ترسو هنا أبداً . وكانت تبحر من مكان لآخر بحمولاتها ولم يعد العبيد ذوو العضلات المارة يعملون هنا ، وكان قد أتى بهم نظام الرق ولم تعد تصاعد من تحت الجسر اغنية بحار امتابه الحنين وقد امتد الرمل بلونه المضيء امام المستودع ولم يعد يملأ المستودع الواسع جداً بالبالات والطرود والأكياس والصناديق .

وبقي المستودع مهجوراً ، وسط الرمال ، بقعة سوداء على بياض ارصفة الميناء

وطوال اعوام . ظل المستودع مأهولاً فقط بالجرذان التي كانت تختاره في جري مرح وطائش وكانت تقضم خشب ابوابه الضخمة ، وكانت تسكنه سيدة عليه وحدها . وفي عهد معين ، دخل اليه كلب متشرد ، كان يبحث عن ملجأ ضد الريح والمطر ولم ينم في ليلته الأولى . اذ انشغل في تمزيق الجرذان التي كانت تمر امامه مسرعة وقد نام اثر

ذلك بضع ليالٍ ، نابحاً في وجه القمر ، عند الصبح . ذلك لأن قسماً من السقف قد انهار ، وكانت اشعة القمر تنفذ بحرية ، مضيئة ارض المستودع المصنوعة من الواح خشبية . لكن هذا الكلب كان بلا شك كلباً دون صاحب ، فذهب بسرعة باحثاً عن مأوى آخر : ظلمات باب ، أو اعماق جسر ، أو عن جسد دافء لكلبة . واستعادت الجرذان مملكتها ، حتى اليوم الذي اختار فيه « فرسان الرمال » هذا المستودع المهجور ليكون مقراً لهم .

في ذلك العهد ، كان الباب قد انهار من جانب ، ودخل احد « فرسان الرمال » إلى المستودع ، حين كان يتسكع يوماً عبر املاكه الواسعة . (ذلك لأن كل منطقة رمال الارصفة ، كما هي جميع انحاء مدينة « باهيا » كان يملكها « فرسان الرمال ») .

وكان هنا أفضل موضع تماماً للنوم منه على الرمل العاري ، أو في المستودعات الأخرى حيث كانت المياه تتصاعد احياناً عالية جداً بحيث تهدد باغراقهم . ومنذ تلك الليلة ، أخذ قسم كبير من « فرسان الرمال » ينامون في المستودع القديم المهجور ، في صحبة الجرذان تحت القمر الأصفر . وأمامهم كان الاتساع اللانهائي للرمال ، وهي بياض لا نهاية له أيضاً . وفي البعيد ، كان البحر الذي تتكسر امواجه على ارصفة الميناء . ومن الباب ، كانوا يرون أضواء السفن التي تدخل وتخرج . وعبر السقف ، كانوا يرون السماء الملأى بالنجوم ، والقمر الذي يغمر ارجاء السماء والأرض بضيائه الباهر .

وبعد وقت قصير ، نقلوا إلى المستودع مخزون الاشياء التي كانت تتجمع لديهم من عمل النهار ، وقد دخلت حينئذ إلى المستودع اشياء غريبة ، لكنها ليست مع ذلك اكثر غرابة من هؤلاء ، الأولاد اللصوص الاشقياء من جميع الألوان والاعمار ، على اختلافها ، منذ سن التاسعة حتى السادسة عشرة ، ـ الذين كانوا في الليل يتمددون على الأرض ، تحت الجسر ، نائمين بلا مبالاة بالريح التي تهب حول المبنى وهي تزمجر ، وغير آبهين بمياه المطر التي كانت كثيراً ما تغسلهم ، لكنهم يبقون اعينهم موجهة نحو اضواء السفن وآذانهم منتبهة إلى الأغاني القادمة من المراكب . . .

وهنا يسكن أيضاً زعيم « فرسان الرمال » : بيدرو بالا . ومنذ وقت مبكر ، منذ سنه الخامسة ، أطلق عليه هذا الاسم . وهو اليوم في الخامسة عشرة من عمره ومنذ عشرة اعوام وهو يتشرد ويتسكع في طرقات « باهيا » . وهو لم يعرف أبداً أي شيء عن امه ، وقد قُتل ابوه برصاصة . وبقي بيدرو وحيداً ، وقضى سنوات في التعرف إلى المدينة . وهو اليوم يعرف كل دروبها وطرقاتها وشوارعها ، ولا يوجد خمّارة أو محل لبيع الفواكه أو مقهى لا يعرفه . وحين انخرط في « فرسان الرمال » (إن الارصفة التي بنيت

حديثاً قد اجتذبت برمالها جميع اولاد المدينة المشردين) كان زعيم « الفرسان » هو رايموندو ، « الكابوكل » (أي الهلاسي البرازيلي) ، وكان فتى هجيناً قوي البنية وافر النشاط .

ولم يحتفظ ريموندو « الكابوكل » زمناً طويلاً بمركزه كزعيم « لفرسان الرمال » . وكان بيدرو بالا اكثر نشاطاً منه بكثير . وكان يعرف كيف يرتب الضربات ، ويعرف كيف ينافس الآخرين . وكان يحمل في عينيه وفي صوته سلطة الزعيم . وفي أحد الايام ، تشاجرا . وكان من سوء حظ ريموندو أنه استلّ موسى وجرح بها وجه بيدرو وهي ندبة بقيت في وجهه نهائياً . وتدخل الآخرون ، ونظراً لأن بيدرو كان بلا سلاح ، فقد اعطاه رفاقه الحق ، وانتظروا ، آملين بانتقام لم يتأخر في الحقيقة . وفي احدى الليالي ، حين أراد ريموندو أن يضرب باراندا ، وقف بيدرو إلى جانب الزنجي الصغير ، وانقلب الخصمان على الأرض (أي ريموندو وبيدرو) ، وانخرطا في صراع أكثر اثارة من أي صراع سبق أن شهدته رمال المرفأ . وكان ريموندو أكبر جسماً واكثر سناً ، لكن بيدرو بالا ، بشعره الاشقر المتطاير في الهواء ، والندبة الحمراء في وجهه ، كان ذا رشاقة ماثلة في توجيه الضربات ، وهكذا تغلب على ريموندو . ومنذ ذلك اليوم ، لم يتخل ريموندو فقط عن قيادة « فرسان الرمال » بل ترك المكان كله ، والتحق اثر ذلك بالعمل على احدى السفن .

وقد اعترف الجميع بحقوق بيدرو بالا في القيادة وابتداءً من ذلك الحين بدأت المدينة في سماع الحديث عن « فرسان الرمال » ، اولئك الاولاد المشردين الذين يعيشون من السرقة . ولم يعرف أحد اطلاقاً العدد المضبوط للاولاد الذين يعيشون على هذا النحو . وكانوا اكثر من مئة ومن بين هؤلاء ، كان اكثر من اربعين ينامون في المستودع القديم .

وكانوا يلبسون اسمالاً بالية ، وقذرين وأشباه جائعين باستمرار ، وعدوانيين ، يطلقون الشتائم ، ويدخنون اعقاب السجائر ، وكانوا في الحقيقة سادة المدينة ، أولئك الذين يعرفونها بكاملها ، والذين يحبونها كلياً ، وكانوا هم شعراءها .

ليل «فرسان الرمال»

كان ليل السلام الكبير القادم من ارصفة المرفأ قد لف السفن الشراعية، والقلعة، وسد الميناء، وتمدد على طلعات الطرق وأبراج الكنائس. وكانت الاجراس قد كفّت عن الرنين لصلاة الغروب، ذلك لأن الساعة السادسة كانت قد دقت منذ حين طويل. وإذا كان القمر لم يبزغ بعد في هذه الليلة النيرة، فقد كانت السماء ملأى بالنجوم. وكان المستودع منفصل المشهد عن بياض الرمال التي تحتفظ بآثار خطى «فرسان الرمال»، الذين كانوا قد ناموا. وفي البعيد، كان النور الضعيف لـ «بورتا دو مار» (وهي حانة للبحارة) يبدو وكأنه يحتضر. وكانت ريح باردة تهب مثيرة الرمال ومعرقلة سير الزنجي جواو غراندي الذي كان يتأهب للذهاب إلى النوم. كان يمضي منحنياً تحت الريح مثل شراع زورق. كان طويل القامة، وهو أطول فتيان العصابة، وأقواهم أيضاً. وكان شعره قصيراً وعضلاته صلبة، رغم أنه لا يكاد يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، انقضت أربع منها في أوسع حريات الحياة. راكضاً في طرقات «باهيا» في صحبة «فرسان الرمال». ومنذ بعد ظهر ذلك اليوم، حين صرع أبوه، وهو سائق عربة عملاق. في صدمة من شاحنة، في حين كان يقود حصانه إلى جانب الطريق، لم يعد الفتى جواو غراندي إلى بيتهم الصغير في «المورو»[1]. وأمام «جواو» كانت المدينة الغامضة الملأى بالاسرار، وقد ذهب لغزوها. إن مدينة باهيا، السوداء والتقية. هي غامضة تقريباً مثل غمرص البحر الاخضر وامتلائه بالاسرار. ولأجل هذا بالذات، لم يعد جواو غراندي إلى بيته أبداً. وقد انضم وهو في التاسعة من عمره إلى «فرسان الرمال»، حين كان «الكابوكل» (الخلاسي ويموندو) ما زال هو الزعيم والمجموعة غير معروفة، ذلك لأن الكابوكل لم يكن يحب أن يتعرض للخطر. وبسرعة كبيرة، فرض جواو غراندي نفسه كواحد من زعماء المجموعة، ولم يفته أبداً حضور أي من الاجتماعات التي كان ينظمها القادة لتدبير السرقات. وليس ذلك لأنه

(١) «المورو»: تلة يعيش عليها الزنوج في اكواخ.

كانت له مواهب خاصة كمعظم خوادث السطو هذه، ولا حتى كان لديه ذكاء حاد بل بالعكس. فقد كان التفكير يسبب له وجعاً في الرأس، وكانت عيناه تحرقانه حين يحاول التفكير. وكان يصاب بذلك الألم أيضاً حين يرى شخصاً ما يسيء معاملة الصغار. حينئذ كانت عضلاته تتوتر، وكان يصبح مستعداً لأية مشاجرة لكن قوته العضلية الهائلة كانت تجعله خصماً مرهوب الجانب. وكان الصبي «ذو الرجل الرخوة» يقول عنه:

- إنه زنجي غبي لكنه قوة جبارة.

وكان الصبيان الأصغر سناً، جميع هؤلاء الصغار الذين يصلون إلى الجماعة مفعمين بالخوف. كانوا يجدون في «جواو غراندي» اقوى حماتهم وأصلبهم. وكان بيدرو الزعيم يحب أيضاً الاصغاء إلى جواو. وكان هذا يعرف جيداً انه لا يجوز على صداقة بيدرو بسبب قوته، أي جواو غراندي، بل إن بيدرو كان يجد أن الزنجي طيب، ولم يكن يتعب من الترديد:

- أنت طيب. يا غراندي. وأنت أفضل منّا. انني احبك كثيراً. وكان يربت بلطف على ساقي الزنجي الذي كان وجهه يحمر من التأثر والسرور.

كان جواو غراندي يتقدم نحو المستودع. وكانت الريح تعرقل سيره. وانحنى هو لكي يقاوم ضد الريح التي كانت ترفع الرمال في الهواء. وكان جواو في حانة «بورتا دو مار» يشرب كأساً من الخمر مع «حبيب الله الطيب» الذي وصل اليوم من بحار الجنوب. حيث يوجد أحد المصائد.

وكان «حبيب الله الطيب» هو أشهر لاعب كابويرا[2] في المدينة. ومن الذي لا يحترمه في «باهيا»؟. وما من أحد يستطيع أن ينافس «حبيب الله الطيب» في مصارعة الكابويرا - حتى ولا زيه موليث الذي حاز شهرة عظيمة في ريو دي جانيرو. وقد روى «حبيب الله الطيب» الاخبار، وأبلغ بأنه سيظهر في اليوم التالي في «المستودع» لمواصلة اعطاء دروس في مصارعة الكابويرا التي يتلقاها بيدرو بالا، وجواو غراندي، والقط. كان جواو غراندي يدخن سيجارة ويسير نحو المستودع. وكان اثر قدميه الكبيرتين ينطبع في الرمل. لكن الريح، كانت تقوم بمحو آثار خطاه. وكان الزنجي

(٢) الكابويرا: طريقة مصارعة ولدت من رقصة للزنوج، وقد احتفظت منها بالايقاع والتي تصاحب حركاتها فرقة حرفية موسيقية خاصة. وهذه المصارعة التي تشكل انتصار الرشاقة على القوة هي المصارعة الوطنية المحارة

يفكر في أن طرق البحر خطرة في هذه الليلة الهوجاء الريح.

كان جواو غراندي يمر تحت الجسر، وتنغرس قدماه في الرمل متلافياً أن يمس أجسام الرفاق الذين يرقدون هنا. ودخل إلى المستودع، وقد تردد لحظة، ونظر حتى يتبين ضوء شمعة «الاستاذ» وكان هذا في ابعد زاوية من المبنى. آخذاً في القراءة على ضوء شمعة. كان جواو غراندي يفكر في أن هذا الضوء هو اضعف وأكثر تراقصاً من ... في حانة «بورتا دي مور» وأن «الاستاذ» يضعف بصره لكثرة قراءته هذه الكتب المطبوعة بأحرف صغيرة. واتجه جواو غراندي نحو «الاستاذ» رغم أنه، أي جواو، كان ينام دائماً عند باب ... ، مثل كلب حراسة، والخنجر قرب يده، لتلافي أية مباغتة.

كان يمضي سائراً بين جماعات الفتيان التي تتناقش، وبين الاولاد النائمين، ووصل إلى قرب «الاستاذ»، وقرفص إلى جانبه، وراح يراقب القراءة المنتبهة للشخص الآخر.

إن جواو ـ جوزيه «الاستاذ»، منذ اليوم الذي سرق فيه كتاباً من على رف منزل في حي «بارا» قد اعتبر أستاذاً في هذا النوع من السرقة، بيد أنه لم يقم أبداً ببيع الكتب التي كانت تتكدس في احدى زوايا المستودع، تحت قطع الآجر، لكي لا تقرضها الجرذان. كان يقرأها كلها نظراً اقرب إلى الحمى. وكان يحب أن يعرف الاشياء، وكان هو نفسه الذي يروي، في كثير من الليالي، للفتيان الآخرين قصص المغامرين، والبحارة والشخصيات البطولية والاسطورية، وهي قصص كانت تشحذ هذه العيون المتوهجة نحو البحر أو نحو طلعات المدينة، في تعطش إلى المغامرات والبطولة. كان جواو ـ جوزيه هو الوحيد بين فتيان «فرسان الرمال» الذي يقرأ بصورة صحيحة، ومع ذلك لم يقض في المدرسة سوى عام ونصف، لكن الممارسة اليومية للقراءة قد أيقظت خياله كلياً، وربما كان هو الوحيد بين رفاقه، الذي لديه وعي معين لما يوجد من بطولة في حيوات الناس. وهذه المعرفة وهذه القدرة على رواية القصص قد أكسبته احترام «فرسان الرمال» له، رغم أنه كان صغير الجسم، نحيفاً وحزيناً، وشعره البني يتساقط على عينيه الضيقتين الحسيرتين (ميوب). وقد لقب بـ «الاستاذ» لأنه تعلم في احد الكتب المسروقة القيام ببعض الالعاب السحرية، مع مناديل ودراهم، وكذلك لأنه لدى روايته القصص التي كان يقرأها، وكثيراً غيرها كان يتخيلها، كانت لديه القدرة العظيمة والغامضة بالاسرار، لنقلهم إلى عوالم متعددة، وكانت لديه القوة لجعل العيون المتوجهة لـ «فرسان الرمال» تبرق متلألئة كما تتلألأ وحدها نجوم ليل

«باهيا» ولم يكن يبدور مالا يقرر شيئاً دون أن يستشير «الاستاذ» وكثيراً ما كان خيال «الاستاذ» هو الذي ولّد أفضل خطط السرقة. ولم يكن احد يعرف مع ذلك، أنه سيأتي يوم، بعد أعوام كثيرة، حيث سيعلمه أن يروي في لوحات مثير رعب البلاد، قصة حيوات «فرسان الرمال»، وكثير من القصص الاخرى لرجال يناضلون ويعانون الكثير من المتاعب والمآسي. ربما كانت دون آنينها[3] وحدها، أو معها «ماي دي سانتو»[4] هي التي تعرف ذلك، والتي تروي مغامرات الابطال الزنوج والخلاسيين في ليالي العواصف.

ظل جواو غراندي وقتاً طويلاً ينظر إلى الآخر وهو يقرأ. وبالنسبة للزنجي، لم تكن هذه الحروف تعني أي شيء. وكان بصر الزنجي ينتقل من الكتاب إلى ضوء الشمعة المتراقص، ومن هذا إلى الشعر المشعث «للاستاذ» وانتهى به الامر إلى التعب، وسأل بصوته الحار المليء: ـ أهذا جميل يا «استاذ»؟

حول الاستاذ نظره عن الكتاب، وربت بيده النحيفة المعروقة على كتف الزنجي، أكثر المعجبين به حرارة وقال، انها قصة رائعة يا كبيري العظيم.

والتمعت عينا الأستاذ.

ـ أي قصة بحار؟

ـ انها قصة زنجي مثلك تماماً. وهو زنجي وقوي في الحقيقة.

ـ هل ترويها لي؟

ـ حين انتهي من قراءة الحكاية، سوف ترى أي زنجي عظيم هو بطلها...

وعاد ليستغرق في صفحات الكتاب واشعل جواو غراندي سيجارة رخيصة، وقدم في صمت سيجارة اخرى «للاستاذ»، وراح يدخن، مترفعاً كما لو أنه كان يسهر في قراءة الآخر، وعبر المستودع كان ينتشر صوت ضحكات، وثرثرات، وصخب. وكان جواو غراندي يتميز بوضوح صوت «ذي الرجل الرخوة»، الذي كان يصفر صفيراً ويغمغم. كان «ذو الرجل الرخوة» يتكلم عالياً ويضحك كثيراً. وكان هو جاسوس المجموعة، ذلك الذي كان يعرف كيف يدخل طوال اسبوع في

(٣) دون آنينها، حرفياً. السيدة آنيت

(٤) «ماي دي سانتو» و«باي دي سانتو»، كهنة الصلوات الحبشية (أو الشيمية، وهي عبادة الاشياء السحرية) للدين الزنجي. وهؤلاء الكهنة كانوا على حد سواء، نساء، أي ماي دي سانتو، أو الرجال، باي دي سانتو، أي بالضبط أم القديس أو أبو القديس.

احدى العائلات، متظاهراً بأنه غلام طيب صغير اضاعه اهله في الاتساع العدواني للمدينة

وكان اعرج. لُقب لاجل ذلك بـ «ذي الرجل الرخوة»، لكنه عاد عليه ايضاً بعطف امهات عائلات بريئة على عتبة منازلهن، مسكيناً حزين المظهر، يستعطي قليلاً من الطعام والمأوى لأجل ليلة. والآن وسط المستودع، كان «ذو الرجل الرخوة» يسخر من «القط» الذي اضاع نهاراً بطوله في سرقة خاتم بلون نسذي، دون أية قيمة، لأنه حجر مزيف ذو جمال مزيف أيضاً

وكان قد مر اسبوع و«القط» قد ابلغ جميع الناس قائلاً. لقد رأيت احد تلك الخواتم الرائعة، يا اخي الكبير، الذي لا يملك مثله حتى المطران. انه خاتم ملائم تماماً لأصبعي. ملائم كلياً أيها الأخ. وسوف ترى حين سأحضره

- من أية واجهة زجاجية؟

- في أصبع احد الحمقى. وهو شخص بدين جداً يستقل كل يوم قطار بروتاس، في اسفل حي ساباتيرو

وقد نجح «القط» اخيراً وسط الزحمة الشديدة في قطار الساعة السادسة مساء، في سحب الخاتم من أصبع الرجل البدين، محتمياً وسط الهرج والمرج الذي ساد القطار عند صراخ الرجل الضخم حين تبين سرقة خاتمه. وأظهر «القط» الخاتم في اصبعه الأوسط لرفاقه من «فرسان الرمال».

وكان «ذو الرجل الرخوة» يضحك

- هل يمكن لشخص عاقل أن يعرض نفسه للسجن لأجل قذارة كهذا الخاتم. انه حطام قذر

- وماذا يهمك أنت من هذا؟ أنا يروق لي هذا الخاتم، وهذا كل شيء.

- انك تخلس هنا كالاحمق مع هذه القذارة.

- ولكن بالعكس، فهو لطيف جداً في اصبعي. ولدي فكرة أخرى لأسرق خاتماً اجمل منه أيضاً

وكان الفتيان يتحدثون أيضاً طبعاً عن النساء، رغم أن اكبرهم سناً لا يكاد يتجاوز السادسة عشرة من عمره. وكانوا في سن مبكرة يعرفون اسرار الحب.

إن بيدرو بالا، الذي دخل، قد حسم المجادلة التي نشبت. وترك جواو غراندي «الاستاذ» في قراءاته، واقترب من الزعيم. وكان «ذو الرجل الرخوة» يضحك لوحده، متمتماً بكلمات في صدد الخاتم. ودعاه بيدرو، واتجها يتبعهما جواو غراندي،

نحو الزاوية حيث يوجد «الاستاذ»

- تعال ادن. انبا «الاستاذ»

وجلسوا او بقربهم. واشتعل «ذو الرجل الرخوة» عقب سيجارة ممتازة، وراح يدخنها بلذة. وكان «جواو غراندي» يفحص القسم من البحر الذي كان يرى عبر الباب، وراء الرمال. وتكلم بيدرو

- إن غونزاليس من الحي (١٤) قد حدثني اليوم.

- هل هو يريد أيضاً سلسلة ذهبية؟ وفي المرة الاخيرة... وتوقف «ذو الرجل الرخوة» عن الكلام

قال بيدرو: كلا، بل انه يريد قبعة ولكن من اللبد المخملي. أما قبعة القش فلا تساوي شيئاً. وهو يقول ان هذه لا يمكن عملها... وكذلك ..

- هذا أيضاً هكذا! قاطعه مجدداً «ذو الرجل الرخوة».

- وكذلك فإن القبعات المائلة جداً لا تناسب

- إنه يريد قبعة فاخرة من اللبد. لا غير. وعلى كل حال، فنحن نعمل معه في تجارة وهو لا يجود علينا حتى بنصف دوبس.

- لا بأس يا «ذا الرجل الرخوة». إذا كنت تريد السير في المسألة. اذهب. ولكن دعنا نرتب المسألة بصورة منظمة وصالحة

- أقول انني لا أريد المضي في هذه العملية. بل اقول فقط إن العمل من أجل حيي يسرق المومسات ليس عملاً مناسباً. ولكن اذا كان يروق لك

- إنه يقول بأن هذه المرة سيكون سخياً معنا. وسيقدم مالاً يساوي جهدنا. لكنه لا يريد سوى قبعة من اللبد، قوية وجديدة. واسمع، «ذو الرجل الرخوة» سوف نستطيع مع آخرين ان نأخذ المسألة على عاتقك. وغداً مساء، سيرسل غونزاليس إلى هنا مستخدماً من حي ١٤، لحمل النقود وأخذ القبعات

- ان المكان المناسب لهذه العملية هو دور السينما. هكذا قال «الاستاذ» وهو ينصت نحو ذي الرجل الرخوة

- إن سينما «فيكتوريا» هي مكان يقصده الناس الاغنياء

وابدى «ذو الرجل الرخوة» حركة ازدراء. ويكفي الامر الدخول إلى أروقة السينما، والعثور على قبعات بالتأكيد. وهذه الدار هي مقصد الناس من ذوي البطر والغنى... من أعلى مستوى من الناس

- وهناك رجال الشرطة أيضاً

ـ هل تهمك الشرطة؟ إن حراس دور السينما يكتفون بالتفرج على الافلام، وممارسة لعبة التخشة

ـ هل تأتي معي أيها «الاستاذ»؟

ـ سآتي لا سيما وأنا في حاجة إلى قمعة جيدة.

وأضاف بيدرو بالا.

ـ خذ في رفقتك من تريد من الفتيان، يا «ذا الرجل الرخوة». باستثناء الطويل و«القط» اللذين لدي معهما مشروع لأجل الغد.

والتفت نحو «جواو غراندي»:

ـ انها عملية مع «حبيب الله الطيب».

ـ لقد سبق وحدثني عنها. وقال إنه جاء هذه الليلة لأجل مصارعة «الكابويرا».

والتفت بيدرو نحو «ذي الرجل الرخوة» الذي كان ينسحب ليدبر مع صاحبه الفتى «سكر الشعير» تشكيل الفريق من الصبيان الذي سيذهب في اليوم التالي للبحث عن قمعات. وقال له بيدرو:

ـ انتبه، يا «ذا الرجل الرخوة».

ونبه الفتيان إلى أنه اذا افتضح امر احدهم فعليه أن يفارق هذا المكان نهائياً. ويجب أن لا يعود إلى هنا اطلاقاً.

وطلب بيدرو سيجارة، ومد له جواو غراندي واحدة وكان «ذو الرجل الرخوة»، الذي صار بعيداً، كان يدعو «سكر الشعير» وراح بيدرو يبحث عن «القط» وكان يرى أن يناقش معه مسألة عملية اخرى. وعاد اثر ذلك، وتمدد قرب موضع جلوس «الاستاذ» واستعاد هذا كتابه، وظل عاكفاً على قراءته حتى ذابت الشمعة كلياً، وغمرت الظلمة ذلك المكان. وسار «جواو غراندي» بهدوء نحو الباب، حيث رقد بطوله، والخنجر في حزامه.

كان «سكر الشعير» نحيفاً وطويلاً جداً، وذا وجه جاف شبه مصفر، وعينين غائرتين محاطتين بالسواد، وفم فاغر، قليل الابتسام. وراح «ذو الرجل الرخوة» في التحدث معه، سائلاً اياه اذا «كان قد بدأ صلواته»، ثم تطرق إلى موضوع سرقة القبعات، وقد اتفقا على أنهما سيصطحبان عدداً من الاولاد الذين اختاراهم بعناية، وعينا مواضع العمليات وافترقا وذهب «سكر الشعير» إلى موضعه المعتاد، في احدى زوايا المستودع، وكان ينام بصورة دائمة في الموضع الذي تشكل الجدران عنده زاوية دافئة، وقد وضع هناك بعض أشيائه وممتلكاته، وهي عبارة عن لحاف بال، ووسادة

سرقها من فندق حيث دخل اليه في أحد الايام حاملاً امتعة احد المسافرين. وكان لدى «سكر الشعير» ايضاً بنطلون كان يلبسه يوم الاحد مع كنزة لا يمكن تحديد لونها، لكنها نظيفة بعض الشيء، على كل حال. وكانت هناك صورتان لقديسين موضوعتان في اطارين، وهما مسمرتان في الجدار، كانت احداهما صورة للقديس انطوان يحمل بين ذراعيه الطفل يسوع المسيح، (كان اسم «سكر الشعير» هو انطوان، وقد سمع من يقول ان القديس انطوان كان برازيلياً) والصورة الثانية كانت تمثل «سيدتنا ذات السبعة آلام»، ذات الصدر المثقوب بالسهام، ولكن كانت توجد تحت اطارها زهرة ذابلة وتناول «سكر الشعير» الزهرة، وشمها ووجد انها لم تعد تفوح بأية رائحة. وحينئذ علقها في الكتفية (وهو ثوب يلبسه الرهبان على الكتفين والظهر) التي كان يرتديها على صدره، واخرج من جيب سترة قديمة يلبسها، زهرة قرنفل حمراء قطفها من احدى الحدائق، تحت نظر الحارس بالذات، عند لحظة الغروب الغامضة ووضع القرنفلة بعناية وحب تحت اطار الصورة، في حين راح يتأمل القديسة بنظرة مفعمة بالحنان واثر ذلك على الفور، ركع يصلي. وفي البدء كان الفتيان الآخرون ينهالون بالتنكيت عليه لرؤيته راكعاً في الصلاة. ومع ذلك فقد اعتادوا على مشاهدته كذلك. ولم يعد احدهم يعير الامر اهمية. وراح يصلي، وكان مظهره المعبر كزاهد يزداد ظهوراً. وكانت يداه الطويلتان والنحيفتان ترتفعان امام صورة القديسة، في حركة عبادة وكان كل وجهه كأنما هو محاط بهالة وكان صوته يكتسب انغاماً وارتعاشات يجهلها رفاقه وكان يظهر مأخوذاً إلى خارج هذا العالم، وكأنه لم يعد داخل المستودع المتداعي والمهدم بل في أرض أخرى قرب سيدتنا ـ ذات الآلام ـ السبعة، بيد أن صلاته كانت مبسطة، وهي لم يتعلمها في كتاب الصلوات: كان يطلب في صلاته من العذراء مساعدته في أحد الايام لكي يستطيع الدخول إلى تلك الكلية الدينية (السودرية) التي يتخرج منها الفتيان وقد تحولوا إلى كهنة وكان «ذو الرجل الرخوة» قد رتب تفصيلاً عملية القبعات. واثر رؤية رفيقه وهو يصلي، تأهب ليمازحه بمزاح طيب. وهو مزاح كان مجرد التفكير فيه يدخل السرور والبهجة إلى قلبه، وكان يشوش بذلك كلياً صلاة صديقه «سكر الشعير» وحين وصل «ذو الرجل الرخوة» إلى قرب المصلي، ورآه في حالته هذه، رافعاً يديه في حركة عبادة وعيناه مرتفعتان إلى مكان مجهول، ووجهه مضيء بغبيرة الايمان، (وكان كأنه مغمور بهناء ونعيم لا حدود لها) توقف «ذو الرجل الرخوة». وماتت الضحكة الساخرة على شفتيه، ولبث يتفحص صديقه، وهو شبه خائف. وقد اجتاحه شعور يعود بعض

الشيء إلى الرغبة وإلى اليأس. وتوقف « ذو الرجل الرخوة » ناظراً ؛ ولم يكن « سكر الشعير » يتحرك. وكانت شفتاه وحدهما تتحركان ببطء. وكان من عادة « ذي الرجل الرخوة » أن يسخر منه كما كان يسخر من جميع الصحاب الآخرين في المجموعة. وحتى من « الاستاذ » الذي كان يحبه، ومن بيدرو بالا الذي كان يحترمه. وكان كل وافد جديد إلى « فرسان الرمال » يكون لدى وصوله فكرة قاسية عن « ذي الرجل الرخوة »، ذلك لأن هذا الاخير كان يسارع إلى مهره بلقب، ضاحكاً ازاء اية عبارة يتلفظ بها العضو الجديد. وكان يحول كل شيء إلى موضوع للضحك، وكان من أكثر الفتيان ولعاً بالتعارك والمشاجرة، وكانت شهرته في الخبث راسخة بقوة. وفي أحد الأيام، قام بعملية تعذيب مخيفة ضد قط دخل إلى المستودع القديم. وفي مرة أخرى، طعن بضربة موس غلاماً في أحد المطاعم وذلك فقط ليسرق منه فروجاً مشوياً. ولكن رفاق « ذي الرجل الرخوة » قد رأوه يوماً وهو يشق، ببرود، خراجاً في ساقه بواسطة مطواة (عربية) وتحت انظار الجميع قام بذلك العمل وهو يضحك. وفي المجموعة كان كثيرون لا يحبونه. لكن الذين كانوا يغضون النظر عن عيوب « ذي الرجل الرخوة »، ويرتبطون معه في صداقة كانوا يقولون عنه أنه « شخص طيب ». وفي اعمق اعماق قلبه، كان يتألم لاحزانهم ومصائبهم جميعاً. وكان وهو يضحك ويسخر، ينتقم عن اساه بنفسه. وكان ذلك بالنسبة اليه مثل مخدر. وقد لبث ساكناً دون حركة وهو ينظر إلى « سكر الشعير » مستغرقاً في صلاته. وعلى وجه المصلي، مرت لمعة حماسة شديدة، وشيء حسبه منذ البدء « ذو الرجل الرخوة » ابتهاجاً أو غبطة. لكنه راح يتفرس في وجه الآخر، وعثر فيه على تعبير لم يكن يعرف كيف يحدده، وكان يقلص وجهه الصغير وفكر في أنه ربما لهذا السبب لم يسبق له أبداً في حياته أن فكر في الصلاة ولا في أن يتوجه نحو السماء، التي كان يحدثهم عنها كثيراً الاب جوزيه بيدرو، حين كان يأتي لزيارتهم. وكان ما يريده « ذو الرجل الرخوة »، هو السعادة، والفرح والبهجة. وكان الفرار من كل هذا البؤس وهذه التعاسة التي تحوم حولهم وتخنقهم. صحيح أنه كانت هناك طبعاً الحرية الكبيرة المتاحة في الطرق والشوارع الشاسعة الابعاد. ولكن كان هناك أيضاً التخلي عن أية مداعبة عطوف، وفقدان كل كلام طيب، وهذا كله كان « سكر الشعير » يبحث عنه في السماء، وفي الصور التقية، وفي الازهار الذابلة التي كان يأتي بها الى سيدتنا ـ ذات الآلام ـ السمحة، مثلما يحمل شاب انيق في حي المدينة الارستقراطي باقة الزهور إلى الفتاة التي يحبها، ممهداً للزفاف. لكن « ذا الرجل الرخوة » لم يكن

يفكر في أن هذا يمكن أن يكفي. وكان ما يريده هو، شيئاً فورياً، شيئاً يجعل وجهه باسماً ومبتهجاً، ويحرره من الحاجة والعوز. ويجعله يسخر من الجميع ومن كل شيء. وأن يحرره أيضاً من هذه الغصة وهذا القلق الخانق وهذه الرغبة في البكاء التي كانت تنتابه في ليالي الشتاء. ولم يكن يريد الاشياء التي يسعى اليها « سكر الشعير »: هذه الغيبوبة الحماسية في وجهه. كان « ذو الرجل الرخوة » يريد الفرح والبهجة، ويريد تداعيه، وشخصاً ينسيه بكثير من الحب العاهة الجسدية (من عرجه) وجميع هذه السنوات (وربما لم تكن هي بالكاد سوى شهور أو اسابيع لكن بالنسبة له ستظل دائماً اعواماً طويلة) التي عاشها وحيداً في طرقات المدينة وشوارعها. يعامله المارة بقسوة وسخرية، ويهال رجال الشرطة عليه بالضرب، بسبب وبدون سبب، وكذلك الاشقياء الاكبر سناً. ولم تكن له أبداً عائلة وقد سكن في منزل خباز كان هو يناديه « يا عرابي » لكن هذا كان يضربه أيضاً. وقد فر من ذلك المنزل منذ أن استطاع أن يفهم أن الفرار يمكن أن يحرره. لقد عانى الجوع، ثم في احد الايام ساقوه إلى السجن. كان يريد مداعبة حنان، ويداً تمحو من عينيه ذكريات تلك الليلة في السجن، حين جعله الجنود السكارى يركض على رجله العرجاء دائراً حول الغرفة. وفي كل زاوية كان يوجد شخص مسلح بهراوة من المطاط الصلب، والآثار التي تركتها هذه الهراوات على ظهره قد امحت. ولكن في اعماق نفسه لم يمح أبداً الالم الذي اصابه في تلك اللحظة. كان يركض في الغرفة مثل حيوان تطارده حيوانات أخرى اقوى منه. كان يجد صعوبة في تحريك ساقه العرجاء. وكان سوط المطاط يثر على ظهره حين كان التعب يجبره على التوقف بادىء بدء، بكى كثيراً؛ ثم ودون أن يدري كيف جفت دموعه. وفي لحظة معينة، لم يعد يطيق فيها الضرب الذي يناله، سقط منهاراً على الأرض. كان لحمه الممزق ينزف دماً، وما زال حتى اليوم، يسمع ضحك الجنود وضحكة ذلك الرجل ذي الصدرة الرمادية الذي كان يدخن سيجاراً. واثر ذلك، التقى بفرسان الرمال، (و« الاستاذ » هو الذي جاء به، بعد أن نشأ بينهما تعاطف على مقعد في حديقة) وبقي بينهم. ولم يطل به الامر حتى تميز. ذلك لأنه كان يعرف، أفضل من أي شخص آخر، اصطناع الم شديد، وبذلك يخدع السيدات (ربات المنازل) اللواتي كان يزور بيوتهن بعد ذلك أفراد العصابة الذين كان قد اعلمهم بجميع المواضع التي تحتوي على الاشياء الثمينة، وبكل عادات المنزل. وكان « ذو الرجل الرخوة » يحس بارتياح حقيقي حين يتصور كم سوف تلعنه هؤلاء النساء اللواتي حسبنه يتيماً مسكيناً. هكذا كان يثأر، لأن قلبه كان مليئاً بالحقد والبغضاء. كان يحس برغبة سوداء في امتلاك قنبلة (مثل

تلك القنابل التي ورد ذكرها في قصة رواها لهم « الاستاذ ») قنبلة تستطيع أن تدمر المدينة كلياً ، وأن تنسف العالم بأسره . وعلى هذا النحو سوف يكون سعيداً . وربما سيكون سعيداً أيضاً اذا جاء شخص ، ربما امرأة ذات شعر وخطه الشيب ، ويدين ناعمتين ، تشده على صدرها ، وتداعب وجهه وتجعله ينام نوماً هنيئاً ، نوماً لا تعكره كوابيس ليلة السجن . على هذا النحو سيكون سعيداً ، ولن يفعم الحقد قلبه بعد ذلك . ولن يشعر بعد ذلك بالازدراء ولا بالحسد ، ولا بالبغضاء ضد « سكر الشمير » ، الذي يفر ، رافعاً يديه إلى الاعلى ، بعينين ثابتتين ، من عالم الآلام نحو عالم عالٍ ، تكشف عنه احاديث الاب جوزيه بيدرو .

اقتربت جلبة اصوات . ووصلت جماعة من اربعة غلمان تشق السكون السائد في ليل المستودع . قفز « ذو الرجل الرخوة » ضاحكاً وراء ظهر « سكر الشمير » ، الذي استمر يصلي ورفع كتفيه وقرر أن يترك إلى صباح اليوم التالي تحديد تفاصيل سرقة القبعات . ونظراً لأن « ذا الرجل الرخوة » يخشى النوم ، فقد تقدم نحو جماعة الغلمان التي وصلت ، وطلب سيجارة ، معلقاً ببعض النكات حول قصة المرأة ، التي كان يرويها الغلمان الأربعة :

ـ صبيان من طرازكم ، من يمكن أن يصدق بأنكم قادرون على بطح امرأة ؟ لا بد أنها خالة لعيبة تلبس ثياب بنت صغيرة . . .

غضب الآخرون .

ـ لا تتظاهر بالمكر والشطارة على كل حال . اذا شئت تعال لترى معنا ، وهكذا سوف تتعرف إلى البنت التي تشكل فريسة جيدة .

ضحك « ذو الرجل الرخوة » ، ساخراً .

ـ اني لست من مكافحي الجرائم . . . ومضى إلى عمق المستودع .

لم يكن « القط » قد نام بعد انه يخرج دائماً بعد الساعة الحادية عشرة ، انه الغلام الانيق في الجماعة . وعند وصوله وهو غلام ابيض ووردي ، حاول « الشارب اللطيف » الاستيلاء عليه ، ولكن منذ ذلك الحين ، كان « القط » ذا رشاقة وخفة هائلتين ، ولم يكن قادماً ، كما كان يظن « الشارب اللطيف » ، من عائلة برجوازية بل كان « القط » قادماً من الهود الماللوكيريوس ، وهم اولاد يعيشون تحت جسور اراكاجو ، المدينة البرازيلية وقد قام برحلته متعلقاً بمؤخرة أحد القطارات ، وكان مطلعاً على الحياة التي يمكن أن تعيشها جماعة من الاولاد المشردين وعلى كل حال ، كانت سنه تربو على ثلاثة عشر عاماً هكذا . استغل فوراً السبب الذي عامله من أجله « الشارب اللطيف » باحترام كبير . وكان « الشارب اللطيف » خلاسياً مربوع القامة ، قبيح الشكل ، قدم

للغلام الوافد حديثاً سجائر وأعطاه شيئاً من غذائه وارتاد المدينة معه . وإثر ذلك ، اشتركا في سرقة حذاء جديد كان معروضاً في واجهة دكان في حي الكندرجية ، وقال « الشارب اللطيف » :

ـ كن مطمئناً ، أنا اعرف أين يمكن أن يباع هذا الحذاء .

ألقى « القط » نظرة على حذائه البالي .

ـ كنت بالضبط أريد أخذ هذا الحذاء لي . لقد بدأت احتاجه . . .

ـ أنت ! أنا ارى أن حذاءك ما زال جيداً تماماً . . . هكذا صاح « الشارب اللطيف » الذي كان نادراً ما يلبس حذاء ، وكان حافياً في ذلك الحين .

ـ سأدفع لك ـ ثمن حصتك . ما رأيك ؟

ألقى « الشارب اللطيف » نظرة على رفيقه . كان « القط » يلبس عقدة رقبة ، وسترة مرقعة ، وشيء هائل ! كان يلبس حذاء وجوربين .

فقال له « الشارب اللطيف » بابتسامة : أنت تمارس الاناقة ، أليس كذلك ؟

ـ إني لم أولد لأجل هذه الحياة . لقد ولدت لأعيش في العالم العظيم ، هكذا قال « القط » ، مردداً عبارة سمعها يوماً من حوّاب (بتشديد الواو) تجاري ، في احدى حانات اراكاجو .

مؤكد أن « الشارب اللطيف » كان يرى « القط » لطيفاً فاتناً . كان هذا ذا هيئة نزقة . ومع أن جماله لم يكن انثوياً ، فقد كان يروق لـ « الشارب اللطيف » الذي ، على كل حال لم يكن يروق للنساء كثيراً ، ذلك لأنه كان قصيراً ونحيفاً فكان يظهر اصغر بكثير من سن الثلاثة عشر عاماً ، التي هي سنه فعلاً . أما « القط » ، من جهته ، فكان طويل القامة ، وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وقد بدأ زغب ناعم ينبت على شفتيه ، وكان يعنى به كثيراً .

ورأى « الشارب اللطيف » ان من الأفضل أن لا يلح في التقرب إلى الغلام ، لكي لا يثير خوفه . لم يكن يعرف أي شيء عن « القط » ، ولم يكن يتصور أن هذا يدرك مقصده تماماً وأنه يتقرب اليه لكي يمتلكه

سارا معاً هزيعاً من الليل ، وهما ينظران إلى أضواء المدينة ، (كان « القط » مذهولاً في الواقع) ، وحوالى الساعة الحادية عشرة ليلاً ، عادا إلى المستودع . وقدم « الشارب اللطيف » « القط » إلى بدرو ، واصطحبه ـ أي « القط » ـ إلى حيث ينام .

ـ لدي غطاء هنا ، وهو كبير بحيث يتسع لنا نحن الاثنين .

رقد « القط » وتمدد « الشارب اللطيف » إلى جانبه وحين ظن أن الآخر قد أغفى ،

احاطه باحد ساعديه ، وبالساعد الآخر بدأ بلطف بتجريده من لباسه ، وبغمضة عين ، نهض « القط » واقفاً .

– انت غلطان يا حلاسي . فأنا رجل !

لكن « الشارب اللطيف » لم يبال باحتجاج « القط » . لم يكن يرى سوى رغبته ، رغبته في جسد « القط » الابيض الوردي ، كان يريد أن يدس وجهه في شعر « القط » وأن يحس صدره ، وخصره ، وإليتيه (طبعاً !) . فانقض عليه مصمماً على بطحه واغتصابه ، لكن « القط » قاومه بشدة ، ودفعه عنه بعيداً ، فانبطح « الشارب اللطيف » على وجهه . وكان الغلمان قد اجتمعوا حول الصبيين المتصارعين .

– لقد اعتبرني « موضوعاً قابلاً » للواط . اليك عني يا عــ . . !

وجر « القط » غطاء « الشارب اللطيف » نحو زاوية أخرى ، وأخلد إلى النوم . وبقي الغلامان متخاصمين بعض الوقت ، ثم تصالحا والآن حين كان « القط » يمل من صديقة صغيرة ، كان يعطيها إلى « الشارب اللطيف » .

في إحدى الليالي ، كان « القط » يتنزه في شارع المومسات ، وكان شعره يلمع ببريانتين رخيص ، وعقدة الرقبة معقودة حول عنقه ، وهو يصفر كأنه أحد غلمان المدينة المعسودين . كانت النساء ينظرن اليه ويضحكن

– انظروا الى هذا الديك الصغير . عن اي شيء جاء يبحث هنا ؟

كان القط يرد على الابتسامات ، ويتابع طريقه .

كان ينتظر أن تدعوه احداهن ليمارس معها الحب . لكنه لم يكن يريد أن يجامعها لقاء نقود يدفعها لها ليس فقط لأن ثروته لم تكن تتجاوز الألف وخمسمائة « ريس » ، بل أيضاً لأن « فرسان الرمال » لا يحبون دفع المال للنساء . وكان لديهم الزنجيات الصغيرات . في سن السادسة عشرة ، اللواتي كانوا يجامعوهن على الرمال

لم يكن هناك مجال للشك : فالنساء كن يهتممن بوجهه الصبياني كن يرينه وسيماً في صباه الفاسد ، ويحببن أن يمارسن الجماع معه . لكنهن لم يكن يدعونه لأن الوقت كان وقت التفكير في المنزل ، وفي غداء الغد لذلك كن يكتفين بالضحك والمزاح . وكن متأكدات من أنه سيصبح يوماً من الايام احد اولئك القوادين الذين يملأون حياة امرأة ما ، يأخذون مالها ، ويضربونها . لكنهم يمنحونها ايضاً كثيراً من الحب . كثيرات منهن يحببن أن يكن المرأة الأولى لهذا الشقي الشاب لكن الساعة كانت العاشرة وهي ساعة الرجال الذين يدفعون المال وكان « القط » يسير من ناحية إلى اخرى ، بلا جدوى وحينئذ لمح « دالفا » القادمة من الشارع ، غارقة في معطف من الفرو ، بالرغم

من هذه الليلة الصيفية . وتجاوزته دون أن تراه تقريباً . كانت امرأة في حوالي الخامسة والثلاثين ، مليئة الجسم بل بدينة ، وذات وجه شهواني جداً . وسرعان ما اشتهاها « القط » فتبعها ، ورآها تدخل إلى بيتها دون أن تلتفت اليه . وبعد لحظة ، ظهرت من النافذة . وصعد « القط » ، في الشارع ، ثم هبط عائداً ، لكنها لم تمنحه أية نظرة ثم مر رجل عجوز ، ودعته ، فصعد إلى بيتها . وواصل « القط » الانتظار ، لكنها ، حتى بعد خروج العجوز مسرعاً ، ساعياً لأن لا يراه احد ، لم تعد إلى النافذة

وليال بعد ليال ، كان « القط » يعود إلى نفس المكان ، في الشارع ، لمجرد أن يراها فقط والآن ، أصبح كل المال الذي يحصل عليه « القط » من السرقات والاختلاس ينفقه على شراء بدلات مستعملة ، ليبرز اناقته كان يتصف بأناقة المتسكعين (الاوباش) الكامنة اكثر ، في طريقة المشي ، وإمالة القبعة ، وربط عقدة الرقبة بصورة مهملة ، منه في الملابس بحد ذاتها كان « القط » يشتهي « دالفا » بنفس الطريقة التي يشتهي فيها الاكل حين يجوع ، أو النوم حين ينعس وكان قد كف عن الاستجابة لدعوات النساء الاخريات ، اللواتي بعد أن حصلن على مصروف الغد ، أصبحن يردن الآن ممارسة الحب مع هذا الغلام الشقي . مرة فقط لحق باحداهن وذلك فقط بقصد الاستعلام عن حياة « دالفا » . على هذا النحو علم من تلك المرأة أن « لدالفا » عشيقاً ، وهو عازف ناي في احد المقاهي ، وكان يأخذ منها النقود التي تكسبها وكان أيضاً يسكر في بيت عشيقته سكراً شديداً بحيث كان يعقد حيوات جميع مومسات المنزل .

كان « القط » يعود كل ليلة ولم تمنحه « دالفا » أبداً اية نظرة ولهذا كان حبه لها يزداد كان يقضي اوقاته في انتظار ممض ، حتى الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل ، وحين كان عازف الناي يأتي ، فيقبل « دالفا » من النافذة ، ثم يدخل من الباب ، المسيء الاضاءة . حينئذ كان « القط » يعود إلى المستودع ، والافكار تغلي في رأسه . « ماذا لو أن عازف الناي لم يأت في احدى الليالي ، . . . وماذا لو أنه مات » . لقد كان ضعيفاً ، ولعله لن يستطيع أن يتحمل قوة « القط » الذي هو في الرابعة عشرة من العمر ونصل العلام على الموسى التي كان يحملها تحت قميصه

وفي احدى الليالي ، لم يحضر عازف الناي . وفي تلك الليلة ، هامت « دالفا » في الشوارع على وجهها ، كالمجنونة ، وعادت في ساعة متأخرة إلى بيتها ، ولم تستقبل أي رجل . ووقفت الآن في النافذة . رغم أن الضربات الاثنتي عشرة المعلنة نصف الليل كانت قد دقت منذ زمن طويل وشيئاً فشيئاً خلا الشارع من المارة ، ثم لم يبق أحد ما عدا « القط » في زاويته ، و « دالفا » التي كانت ما تزال تنتظر في النافذة كان « القط »

بعلم أن هذه الليلة هي ليلته، وأحس بالسعادة. وفقدت «دالفا» كل أمل بحضور عشيقها عازف الناي. حينئذ راح «القط» يخطر ذهاباً واياباً في الشارع. إلى أن لاحظته المرأة، وأومأت له. فاقترب فوراً، وابتسم لها.

- ألست الديك الصغير الذي يظل كل مساء في زاوية الشارع؟

- إن الذي يظل كل مساء في زاوية الشارع هو أنا. أما قصة الديك الصغير هذه.

ابتسمت المرأة في أسى وقالت لـ «القط»:

- هل تريد أن تؤدي لي خدمة؟ سوف أعطيك شيئاً ما. ثم فكرت اثر ذلك، وقامت بإيماءة.

- لا. لا بد وأنك تنتظر صديقتك، ولن تريد أن تضيع الوقت.

- بلى أستطيع. إن التي أنتظرها لن تأتي بسرعة.

- إذن، أريد يا غلامي الصغير، أن تذهب إلى شارع روي - باربوزا، الرقم ٣٥ اسأل عن السيد غاستون. إنه في الطبقة الأولى. قل له أنني في انتظاره.

ذهب «القط» وهو يحس بالاهانة. وفكر في البدء بأن لا يذهب، وبأن لا يعود أبداً لرؤية «دالفا»، لكنه اثر ذلك قرر أن يذهب، لكي يرى عازف الناي عن قرب أكثر، هذا الذي يتجاسر على التخلي عن امرأة جميلة جداً مثل «دالفا». ووصل إلى البناية (وهي عمارة سوداء، مؤلفة من عدة طبقات)، وارتقى السلم، وفي الطبقة الأولى، طلب إلى غلام كان راقداً في الرواق أن يدله على غرفة السيد غاستون فأشار الصبي إلى الباب الاخير. دق «القط» الباب. ففتحه عازف الناي؛ كان في اللباس الداخلي. وفي السرير، لاحظ «القط» امرأة نحيفة. وكان كلاهما ثملين. وقال «القط»

- أنا قادم من عند «دالفا».

- قل هذه العاهرة أن تدعني بسلام. لقد قرفت منها.

ووضع الرجل يده المفتوحة على عنقه. وقالت المرأة من داخل الغرفة:

- من هو هذا الغلام الجميل؟

اجابها عازف الناي - لا تتدخلي أنت...

ثم أضاف بسرعة

- انها رسالة من تلك المومس «دالفا» العجوز. إنها تكاد تموت لكي أعود اليها.

ضحكت المرأة ضحك السكران النذل وقالت:

- أما انت فلم تعد تريد الآن سوى حبيبتك الصغيرة «بيبي»، أليس كذلك! تعال واعطني قبلة، أيها الملاك بدون اجنحة.

ضحك عازف الناي هو أيضاً وقال:

- أرأيت أيها الرجل الصغير؟ قل هذا لـ «دالفا».

- رأيت. في الواقع.. انها (يقصد المرأة النحيلة) جلد جاف، مثل عصا يابسة. أجل يا سيدي، يا للبغات الاسود الذي التقطته، اليس كذلك، أيها الرفيق.

- لا تتكلم عن خطيبتي

اجابه عازف الناي بلهجة جديدة:

ثم سارع إلى القول

- أتريد أن تشرب كأساً؟ إنه كحول قصب السكر. وهو ممتاز. دخل «القط» وغطت المرأة التي على السرير جسدها. واستغرق عازف الناي في الضحك

- إنه فرخ حمام صغير، فقط. لا تخافي.

وقال «القط»: ومع ذلك، فهذا الجلد اليابس لا يغريني أبداً في الحقيقة، كلا. انه لا يهزني اطلاقاً.

واحتسى «القط» كأس الخمرة المصنوعة من ثفل قصب السكر، كان عازف الناي قد تمدد على السرير، وراح يقبل المرأة. ولم يلاحظ العشيقان أن «القط» انصرف، حاملاً محفظة المومس، التي كانت موضوعة على الكرسي، فوق الملابس. وفي الشارع، احصى «القط» ٦٨ ألف رييس. وضع النقود في جيوبه وألقى بالمحفظة على الدرج. ومضى وهو يصفر نحو بيت «دالفا».

كانت «دالفا» تنتظره في النافذة. وثبت «القط» بصره عليها.

- لقد جئت...

ودخل دون أن ينتظر الجواب. ومن الرواق، سألته «دالفا».

- ماذا قال؟

- سأقول لك في الغرفة. دليني على غرفتك.

دخلا إلى الغرفة. كان أول شيء رآه «القط» هو صورة فوتوغرافية لغاستون وهو يعزف على الناي، ويرتدي ثوب سموكنغ. وجلس «القط» على السرير، وراح ينظر إلى صورة غاستون. كانت «دالفا» تحدق النظر اليه، مذهولة، واستطاعت بصعوبة أن تسأله مجدداً:

- ماذا قال؟

أجاب « القط »

- اجلسي هنا. وأشار إلى السرير.

وهمست قائلة: هذا الديك الصغير.

- اسمعي، يا ارنبي الصغير. لقد أهملك وتعلق بامرأة أخرى. اتريـن؟ لكنني انسيها الاثنين معاً. ثم نتفت ريش المومس العجوز. ودس يده في جيبه، واخرج النقود.

- سوف نتقاسم هذه النقود.

- آه! إنه مع امرأة أخرى، أليس كذلك؟ لكن سيدي بونفيم سيجعلهما مشلولين كليهما. ان قديسي هو سيد بونفيم. إنه سيدي.

واتجهت نحو صورة القديس، وابلغته امنيتها، وعادت:

- احتفظ بنقودك. لقد كسبتها عن حق.

وأردف « القط » قائلاً: اجلسي هنا. وعانقها، وألقاها على السرير. ثم راحت تئن من اللذة، وتحت وقع الصفعات التي كان يسددها إليها، قالت هامسة:

- هذا الديك الصغير هو رجل حقاً...

نهض « القط »، وسوى بنطاله، واتجه نحو الموضع الذي فيه صورة غاستون عازف الناي، ومزقها.

- سوف التقط صورة لي، لكي تضعيها هنا، مكان صورة غاستون. راحت المرأة تضحك، وقالت

- تعالى إلى هنا، يا أرنبي السكري. يا لك من شقي، ستكون! سوف اعلمك أشياء كثيرة، يا ديكي الصغير

واقفلت باب الغرفة. وخلع « القط » ملابسه.

★ ★ ★

وهكذا كان « القط » يذهب كل مساء عند منتصف الليل، ولا ينام في المستودع. وكان لا يعود إلا في صباح اليوم التالي، للذهاب مع صحبه الآخرين للقيام بمغامرات النهار.

اقترب « ذو الرجل الرخوة » وقال مازحاً:

- الآن سوف تريننا الخاتم، أليس كذلك؟

- هذا لا يعنيك

كان « القط » يدخن سيجاراً.

- هل تريد أن تأتي لترى ما إذا كان يمكن ان تقوم بضربة؟ يا لك من شخص خائب!

- إنني لا أرتاد تجار الجلود. انني اعرف أين اعثر على الاشياء ذات القيمة

لكن « القط » لم يكن يروق له أن يدردش، وتابع « ذو الرجل الرخوة » جولته في أرجاء المستودع

استند « ذو الرجل الرخوة » إلى الجدار وترك الوقت يمر. ورأى « القط » يخرج حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف وابتسم لأنه غسل وجهه، ودهن شعره بالبريانتين، وسار بتلك المشية المترنحة التي يتميز بها الاشقياء والبحارة. واثر ذلك، ظل « ذو الرجل الرخوة » وقتاً طويلاً ينظر إلى الاولاد النائمين. كان هناك حوالى خمسين ولداً. بدون آباء ولا أمهات وبدون أسياد عليهم. ولم يكن لديهم حرية عدا حرية التسكع في الشوارع. وكانوا يعيشون حياة ليست سهلة دائماً. ويعثرون على ما يأكلون او على ما يلبسون، سواء بحمل حقيبة، أو باختلاس محافظ وقبعات، أو بتهديد الناس. وأحياناً باستجداء الصدقة. وكانت الجماعة تضم ما يزيد عن مئة ولد، ذلك لأن كثيرين منهم لم يكونوا ينامون في المستودع، بل كانوا ينتشرون تحت ابواب مصطبات السحاب، وتحت الجسور، وفي الزوارق المقلوبة على رمال مرفأ الخشب. ولم يكن احد منهم يشكو. وأحياناً كان يموت ولد منهم بمرض لم يعرف علاجه احد. وحين كان يأتي الأب جوزيه بيدرو أو الماي - دي سانتو دون آنينها، « أو أيضاً، » المحبوب من الله الطيب «. كان المريض يحصل على دواء. بيد أن تلك الحال لم تكن مثل حالة الولد الذي يعيش في بيته. كان « ذو الرجل الرخوة » يفكر. فكان يرى أن بهجة هذه الحرية صغيرة جداً مقابل بؤس هذه الحياة

حين سمع حركة، التفت. في وسط المبنى، كان ينهض شخص ما. وعرف « ذو الرجل الرخوة » فيه الزنجي الصغير باراناداو، الذي كان يتجه بخطى حذرة نحو الرمال، خارج المستودع. وظن « ذو الرجل الرخوة » أن الصبي الزنجي سوف يخبيء شيئاً ما، سرقه، ولم يكن يريد أن يطلع صحبه عليه. وكان هذا جريمة ضد قوانين العصابة. اقتفى « ذو الرجل الرخوة » اثر باراناداو، وهو يشق طريقه بين الصبيان النائمين. كان الزنجي الصغير قد اجتاز الباب وراح يدور حول المبنى من ناحية اليسار. هناك في الأعلى، كانت السماء الملأى بالنجوم. والآن كان باراناداو يحث خطاه، ولاحظ « ذو الرجل الرخوة » أن الصبي الزنجي كان يتجه نحو زاوية المستودع الأخرى، هناك حيث كان الرمل اكثر نعومة ايضاً. فاتجه عندئذ في الاتجاه المعاكس ووصل في الوقت المناسب ليرى باراناداو يصطدم بشخص آخر. وقد عرفه على الفور. كان هو الميرو، احد افراد العصابة، وعمره ١٢ عاماً، وهو ولد بدين وكسول. واستطاع « ذو الرجل

الرخوة » أن يلتقط بعض العبارات. كان احدهما يقول « يا غلامي الصغير ، يا غلامي الصغير ». تراجع « ذو الرجل الرخوة »، وازداد قلقه. كان الجميع يدعون إلى المداعبة ، وشيئاً غريباً عن هذه الحياة : الاستاذ في كتبه التي كان يقرأها طول الليل ؛ و « القط » في سرير أمرأة عاهرة تنفق عليه ؛ و « سكر الشعير » في الصلاة التي كانت تغير شكله وهيئته ؛ وباراداو والميرو في الحب ، على رمال الساحل. وأحس « ذو الرجل الرخوة » بأن القلق مستولٍ عليه ، وأنه لا يستطيع أن ينام. فلو نام ، فإن جميع كوابيس السجن ستعود اليه لتملأ نفسه رعباً. كان يتمنى بشدة أن يظهر شخص ما ، يستطيع هو ، اي « ذو الرجل الرخوة » ، أن يعذبه بالسخوية منه. وكان يتمنى أن يخوض شجاراً. رفكر لحظة في أن يشعل عود ثقاب على ساق احد الصبيان الراقدين. لكنه حين نظر إلى باب المستودع ، لم يعد يشعر الا بعم ربرغبة مجنونة في الفرار. وخرج راكضاً عبر الرمال ، راكضاً كيفما اتفق ، هارباً من قلقه. وأيقظت بيدرو بالا ضجة قريبة جداً منه. ورأى ولداً ينهض ويقترب باحتراس من الزاوية التي كان يرقد فيها « سكر الشعير ». وفي نصف الاغفاءة الذي كان فيه ، حسب بيدرو بالا بأن الامر يتعلق بحالة لواط. وظل منتبهاً لكي يطرد الغلام المستسلم للواط من العصابة ، لأن احد قوانين هذه العصابة كان عدم القبول أبداً بوجود لواطي سلبي في صفوف الجماعة. لكنه استنقظ تماماً ، وسرعان ما تذكر أن هذا مستحيل ، ذلك لأن « سكر الشعير » لم يكن من هؤلاء. إذن ، لا بد أن المسألة تتعلق بسرقة. وفعلاً كان الولد قد فتح حقيبة « سكر الشعير ». فانقض بيدرو بالا عليه ، كان الصراع سريعاً. استيقظ « سكر الشعير » لكن الآخرين كانوا نائمين.

- هل تقوم بايجاد صاحب لك مجدداً ؟

ظل الآخر صامتاً ، وهو يحك ذقنه المجروحة. تابع بيدرو بالا كلامه قائلاً :

- غداً سوف تنصرف من هنا ... لم أعد أريدك معنا ، انصرف مع صبيان ايزكييل ، الذين يقضون الوقت يسرق بعضهم البعض الآخر ...

- كنت اريد فقط أن ارى.

- ماذا كنت تريد أن ترى بيديك ... ؟.

- أقسم أنني كنت اريد فقط رؤية هذه المدالية التي لديه .

- رتب قصتك كما ينبغي أو انزلت بك عقاباً شديداً ...

وتدخل « سكر الشعير » :

- دعه يا بيدرو . ممكن تماماً أنه كان يريد فقط أن يرى مداليتي. إنها مدالية

اعطاني اياها الاب جوزيه.

- نعم ، هذه هي الحقيقة ، كنت أريد أن اراها فقط.

لكنه كان يرتعش من الخوف. كان يعرف أن حياة مطرود من بين فرسان الرمال تصبح صعبة. فهو إما أن يدخل في عصابة ايزكييل التي تقضي اوقاتها في السجون ، أو أنه ينتهي به الامر إلى دخول الاصلاحية.

تولى « سكر الشعير » الدفاع عنه مجدداً ، وعاد بيدرو بالا إلى قرب الاستاذ. وحينئذ قال الصبي ، وصوته ما زال مرتجفاً :

- سأقول لك كل شيء لتعرف ، إنها فتاة صغيرة رأيتها اليوم. كانت في مدينة « باي ». وكنت قد دخلت إلى منزلهم لأسرق صدرة ، حين وصلت وسألتني عما أريد ، حينئذ رحنا نثرثر. وقلت لها انني في الغد سأحضر لها هدية. لأنها كانت لطيفة ، لطيفة جداً معي. هل فهمت ؟

والآن اخذ يصيح ، بشدة ، حتى ليظن أنه مسعور

تناول « سكر الشعير » المدالية التي اعطاها له الأب جوزيه ، وراح يتأملها باعجاب وبحاة ، مدها نحو الغلام الصغير.

- خذ اعطها لها. ولكن لا تقل شيئاً لبيدرو بالا.

دخل « الكوع اليابس » إلى المستودع في حين كان الفجر يشرق. ونور ابيض يجتاح اعماق السماء. وكان شعر خلاسي سيرتاو [5] منبوشاً نحو الأعلى. وكان يحتذي بحذاء قماشي للرياضة ، مثله يوم نزل من « الكاتنغا » [6]. وانعكس وجهه القاتم في داخل المبنى. وخطا فوق جسم الزنجي جواو غراندي ، وبصق إلى أبعد ، وأمر رجله فوقه. كان يحمل صحيفة مشدودة إلى صدره. وشمل القاعة كلها بنظرة ، كأنه كان يبحث عن شخص ما. وما أن تبين الموضع الذي يوجد فيه « الاستاذ » حتى أخذ الصحيفة بين يديه الخشنتين الكبيرتين. ودون أن يولي اهتماماً للوقت غير الملائم ، اتجه نحوه صائحاً :

- يا « استاذ » يا « استاذ » ! ...

- ماذا هناك؟

كان الاستاذ شبه نائم.

- أريد شيئاً ما ...

(٥) سيرتاو : داخل البرازيل.

(٦) « الكاتنغا » : منطقة صحراوية في « سيرتاو » (داخل البرازيل) مغطاة بالصبار.

جلس « الاستاذ » . وكان وجه « الكوع اليابس » القاتم غير مرئي تقريباً في الظلام .

ـ أهذا انت ايها « الكوع اليابس » ؟ ماذا تريد ؟

ـ أريد أن تقرأ لي اخبار لامبياو [٧] الواردة في « الكونتيديان » (الجريدة اليومية) . ويوجد صورة له أيضاً .

ـ دع الصحفة لكي أقرأها غداً .

ـ اقرأها اليوم ، وأنا ، سوف اعلمك غداً كيف تحاكي زقزقة الكناري تماماً

بحث « الاستاذ » عن شمعة ، واشعلها ، وراح يقرأ مقال الصحيفة . لقد دخل لامبياو إلى احدى قرى ولاية باهيا ، وقتل ثمانية جنود ، واغتصب عدة فتيات ، ونهب خزائن المحافظة . وأضاء وجه « الكوع اليابس » القاتم وانفتح بابتسامة فمه المطبق . كان سعيداً حين ترك « الاستاذ » الذي اطفأ الشمعة متوجهاً نحو زاويته . وأخذ معه الصحيفة لكي يقتطع صورة عصابة لامبياو . وفي روحه كان يتصاعد نهار ربيعي .

* * *

(٧) لامبياو : قاطع طرق برازيلي شهير (ملاحظة من المترجم) .

باب البحر لابورتا دو مار

انتظروا رحيل الشرطي . وتوقف هذا متفحصاً السماء ، باحثاً بنظره في الشارع المقفر ، واختفى الترام عند المعطف . كان هو ، في هذه الليلة ، آخر ترام على خط بروتاس . اشعل الشرطي سيجارة . وبسبب الريح التي كانت تهب ، اشعل هذا ثلاثة عيدان . ثم رفع ياقة معطفه ليقي جسمه من البرد الرطب الذي كانت الريح تحمله من المزارع التي تتأرجح فيها أشجار المانغا والزعرور الأميركي . انتظر الغلمان الثلاثة رحيل الشرطي لكي ينتقلوا إلى الجانب الآخر من الشارع والدخول إلى الدرب المسدود غير المبلط . ولم يستطع « حبيب الله الطيب » الحضور . لقد قضى طوال فترة بعد الظهر في « بورتا دي مار » ينتظر الرجل الذي لم يحضر . ولو حضر هذا الرجل ، لكان ذلك اسهل ، ذلك لأنه مع « حبيب الله الطيب » ـ الذي كان يدين له بأشياء كثيرة ـ لم يكن بحاجة للنقاش . لكن الرجل لم يأت ؟ كان النبأ كاذباً بالتأكيد ، وعلى « حبيب الله الطيب » أن يعاود السفر هذه الليلة بالذات . كان ذاهباً إلى ايتاباريكا ، اثناء فترة بعد الظهر ، نحو ارض صغيرة كانت موجودة في عمق « بورتا دي مار » (باب البحر) . كان « القط » يهيء نفسه ليصبح بعد حين مصارعاً قادراً على أن يجابه « حبيب الله الطيب » بالذات .

إن بيدرو بالا ، هو أيضاً كان يكشف عن استعدادات كثيرة . وأقل الثلاثة رشاقة كان حواو غراندي ، لكنه كان ممتازاً في معركة يستطيع أن يستخدم فيها قوته البدنية الخارقة . وحتى في حالته تلك ، كان على مقدرة كافية للتخلص من خصم أقوى بأساً منه . وحين تعبوا ، دخلوا إلى الحانة . وطلبوا أربعة كؤوس من النبيذ . وأخرج « القط » ورق اللعب من جيبه ، وهو ورق لعب مدهش ، دبق ، ذو أوراق خشنة . كان « حبيب الله الطيب » يؤكد بأن الرجل سيحضر . إن الرفيق الذي ابلغه النبأ ـ أي « حبيب الله الطيب » ـ كان شخصاً موثوقاً به . كانت هذه الصفقة ستعود بمكاسب كبيرة ، و « حبيب الله الطيب » كان يفضل أن يساعده « فرسان الرمال » أصحابه ، الذين هم أفضل من زعران المرفأ . كان يعرف أن « فرسان الرمال » هم أفضل من رجال كثيرين

وانهم يحفظون السر جيداً. كان « باب البحر » مقفراً تقريباً في هذه الساعة. كان هناك فقط بحاران يحتسيان البيرة، في داخل الحانة، وهما يدردشان. وضع « القط » ورق اللعب على الطاولة وقال

- من الذين يشاركني في جولة ؟

تناول « حبيب الله الطيب » ورق اللعب وقال: إنه أكثر من مغشوش بعلائم خاصة، يا صديقي « القط » إنها لعبة مغشوشة تماماً، وممصوحة تماماً أيضاً.

- إذا كان لديك ورق غيره، فهذا سيان بالنسبة لي.

- كلا. فلنلعب بهذا الورق.

بدأوا باللعب. كشف « القط » عن ورقتين على الطاولة، وأخذ الآخرون يراهنون على واحدة منها، وكان البنك (مال المقامرة) مع الثانية. بادىء بدء، كسب بيدرو بالا، و « حبيب الله الطيب ». ولم يشترك في اللعب جواو غراندي (كان يعرف جيداً تلاعب « القط » بالورق) ؛ كان يكتفي بالتفرج، ضاحكاً بكل اسنانه البيضاء حين كان « حبيب الله الطيب » يقول إن الحظ يحالفه هذا النهار لأنه عيد كسانغو، شفيعه. كان يعرف من جهته أن الحظ لا يبتسم إلا في البداية، وأنه حين سيبدأ « القط » بالكسب، فلن يتوقف بعد ذلك، أبداً. وفي فترة معينة، بدأ « القط » يكسب. وعند الانتصار الأول. قال بصوت حزين بعض الشيء:

- لقد حان الحين تماماً إن معي أوراقاً ممتازة وحق الشيطان!

وسّع جواو غراندي ابتسامته اكثر أيضاً... وكسب « القط » كذلك. نهض بيدرو بالا ووضع في جيبه النقود التي كسبها. ونظر « القط » اليه في قلق:

- ألن تصنع شيئاً ايضاً ؟

- الآن لا، أنا ذاهب لابول...

واتجه نحو عمق الحانة. واستمر « حبيب الله الطيب » يخسر. كان جواو غراندي يضحك، وكان لاعب الكابويرا ينهار. وعاد بيدرو بالا، لكنه لم يعد إلى اللعب. كان يضحك مع جواو غراندي. وتخلى « حبيب الله الطيب » عن كل ما كسب، وقال جواو غراندي من بين اسنانه:

- سوف يمس الرأسمال.

- ولاحظ « القط » قائلاً: ما زلت اخسر. ولاحظ عودة بيدرو. فقال له:

- أما عدت تقامر بشيء ؟ وأفلا تراهن على « البنت الساقي » ؟

- لقد قرفت من المقامرة...

وغمز بيدرو بالا « القط » كأنه يطلب منه أن يكتفي بـ « حبيب الله الطيب ».

تخلى « حبيب الله الطيب » عن خمسة آلاف « ريس » كصندوق. ولم يكن قد كسب سوى مرتين أثناء الجولات الاخيرة. وبدأ يحدر. ونشر « القط » الاوراق على الطاولة، وقدم ملكاً وسبعة وسأل

- من يلعب ؟

لم يجب أحد. ولا حتى « حبيب الله الطيب » الذي كان يراقب الورق بعين حذرة. وسأل « القط »

- هل تعتقد بأنه يوجد غش؟ تستطيع أن تنظر. انني العب بصورة نزيهة

انطلق جواو غراندي في احدى ضحكاته الفاضحة. وشاركه في الضحك بيدرو بالا و « حبيب الله الطيب ». والقى « القط » نظرة مسعورة نحو جواو غراندي:

- هذا الزنجي بليد العقل مثل ثور. أفلا ترى اذن...

لكنه لم يكمل عبارته. لأن البحارين اللذين كانا يراقبان اللعب منذ حين اقتربا. وقال احدهما، وهو الاصغر، الذي كان ثملاً. لـ « حبيب الله الطيب »:

- هل نستطيع الدخول في هذه اللعبة الصغيرة ؟

أشار « حبيب الله الطيب » إلى « القط » قائلاً - الصندوق هو مع هذا الفتى.

نظر البحاران إلى الغلام في حذر وريبة. لكن اصغرهما لكز الآخر بكوعه هامساً ببعض كلمات في اذنه. وفرح « القط » في دخيلته، لأنه كان يعلم أن الآخر يقول انه من السهل الاستيلاء على نقود هذا الولد. وجلس البحاران معاً إلى الطاولة، ودهش « حبيب الله الطيب » لرؤية بيدرو بالا يجلس هو أيضاً إلى الطاولة. ومن جهة أخرى، فإن جواو غراندي ليس فقط لم يدهش، بل انه جلس إلى الطاولة هو أيضاً. كان يعلم أنه يجب مواجهة البحارين. وأن من الضروري لأجل هذا أن يخسر فتيان العصابة هم أيضاً. وبدأ البحاران يربحان، في البدء، كما حدث ذلك لـ « حبيب الله الطيب »، لكن رياح الحظ تحولت بسرعة وبسرعة كان « القط » هو وحده الرابح. وكان بيدرو بالا يطلق صيحات تعجب:

- هذا « القط » حين يحالفه الحظ، تصعب مواجهته..

ورد جواو غراندي: وكذلك حين يأخذ في الخسارة طوال الليل...

هذا الرد أوحى بأكبر الثقة إلى البحارين حول نزاهة اللعب، وامكانات الحظ في التحول. تابعا اللعب والخسارة. وكان اصغرهما يقول فقط: لا بد وأن يدور الحظ!

كان الآخر وهو ذو شارب صغير، يلعب في صمت، وكان في كل مرة يزيد

رهانه. وبيدرو بالا، هو أيضاً كان يزيد قيمة رهاناته. وفي لحظة معينة، التفت الرجل ذو الشارب الصغير نحو «القط».

- هل يسير الصندوق بخمسة آلاف؟

حك «القط» شعره المدهون ببريانتين رخيص، مظهراً عدم تصميم كان رفاقه يعلمون بأنه مجرد شيء شكلي.

- اتفقنا. أنا ألعب. لا لشيء إلا لكي أتيح لك تعويض خسارتك.

راهن البحار ذو الشارب الصغير بخمسة آلاف «ريبس». وقدم الصغير ثلاثة آلاف. وراهن كل منهما على «أس» مقابل خادم الصندوق. كذلك راهن على الآس، بيدرو بالا وجواو غراندي. وأخذ «القط» يقلب الاوراق. كانت الورقة الأولى تسعة. كان البحار الصغير يدق باصابعه على الطاولة، والآخر يشد شاربه الصغير. ثم جاءت ورقة «اثنان»، وقال البحار الاصغر.

- الآس، آس. اثنان، بعد واحد..

وراح يدق الطاولة بأصابعه.

ولكن جاءت سبعة، ثم عشرة. وحينئذ جاء خادم. ونظف «القط» الطاولة، في حين كان بيدرو بالا يظهر هيئة سأم عميق، وقال:

- غداً، حين سوف يستولي عليك النحس، وسوء الحظ، سترى اذا كنت لن أعلمك..

واعترف البحار الأصغر بأنه خسر كل شيء. وجس البحار الآخر ذو الشارب الصغير جيوبه.

- لم يعد لدي سوى بضعة ريبسات لدفع ثمن البيرة. الغلام لاعب ماهر...

نهض البحاران، وودعا أفراد العصابة، ودفعا ثمن البيرة، التي شرباها على الطاولة الاخرى. ودعاهما «القط» للعودة في يوم آخر. فأجاب الاصغر بأن سفينتهما ستبحر هذه الليلة بالذات نحو كارافيلاس. فسيعودان عند الاياب فقط. وانصرفا يمسك احدهما خصر الآخر، وهما يعلقان على النحس الذي أصابهما.

وقدر «القط» مبلغ الكسب. وبدون حساب النقود التي خسرها بيدرو بالا وجواو غراندي، بقي هناك ربح يبلغ ٣٨ ألف «ريبس». وأعاد «القط» إلى بيدرو بالا نقوده. ثم إلى جواو غراندي؛ وفكر برهة، ودس يده في جيبه، وأخرج الخمسة آلاف «ريبس» التي كان «حبيب الله الطيب» قد خسرها قبلاً.

- خذ يا أبله. عساك غش، أنا لا أريد أخذ نقودك...

قبل «حبيب الله الطيب» الورقة المالية بسرور، وربت على ظهر «القط»:

- سوف تذهب إلى بعيد، يا صديقي. وتستطيع أن تكسب ثروة من ألعاب الغش هذه

لكن الشمس كانت قد غربت، والرجل المنتظر لم يأتِ. وطلبوا كأساً اخرى من النبذ. ومع الغروب، ازدادت الريح القادمة من البحر شدة. وبدأ «حبيب الله الطيب» يفقد صبره. وكان يدخن سيجارة وراء سيجارة. وكان بيدرو بالا يرصد الباب. وقسم «القط» الثمانية وثلاثين ألف «ريبس» على الثلاثة، وسأل «جواو غراندي»:

- كيف سيتدبر «ذو الرجل الرخرة» امره في سرقة القبعات؟

لم يجب احد. كانوا ينتظرون الرجل والآن أصبح لديهم انطباع بأنه لن يأتي. إن النبأ السري لم يكن يساوي شيئاً في الحقيقة. ولم يكونوا يسمعون الاغنية القادمة من البحر. كان «باب البحر» (بورتا دي مار) مقفراً، والأب فيليب نعسان على طاولته تلك. القاعة سوف تمتلئ بعد قليل، وحينئذ لن يكون ممكناً أي اتفاق مع الرجل وسط هذا الجو الصاخب. وهو لن يقبل أية محادثة هنا، في هذه القاعة التي تغص بالزبائن، فيمكن أن يتعرف اليه الناس، وهو لم يكن يريد ذلك، كما أن «فرسان الرمال»، هم أيضاً لا يريدون. وفي الواقع، كان «القط» لا يعرف حقيقة المسألة، كما لم يكن يعرفها «بيدرو بالا» و«جواو غراندي». كانا يعرفان فقط ما يعرفه «حبيب الله الطيب» الذي عرضت عليه الصفقة التي قبلها من أجل بيدرو بالا و«فرسان الرمال». وعلى كل حال، فهو نفسه لم يكن يملك سوى معلومات غامضة. وكان ينبغي أن يطلعهم الرجل على معلومات، وقد حدد لهم موعداً في فترة بعد الظهر، في «باب البحر». لكنه حتى الساعة السادسة لم يظهر له اثر. وقد جاء بدلاً عنه الرجل الذي تحدث إلى «حبيب الله الطيب». وقد وصل بالضبط حين كانت العصابة تغادر. وقد أوضح هذا أن الرجل لم يستطع المجيء، لكنه سينتظر «حبيب الله الطيب» في المساء، في الشارع حيث يسكن. وسوف يأتي حوالى الساعة الواحدة فجراً. وأعلن «حبيب الله الطيب» أنه لا يستطيع الذهاب إلى هناك، لكنه يسلم المسألة لـ«فرسان الرمال» ويضعها في أيديهم. وتفحص الوسيط الأولاد بحذر، وسأله «حبيب الله الطيب»:

- ألم يسبق لك أن سمعت الحديث عن «فرسان الرمال»؟

- بلى. قبلاً، ولكن...

- على كل حال، انهم هم الذين سيتولون المسألة. إذن.

بدا الوسيط أنه يوافق. واتفقوا على اللقاء في الساعة الواحدة فجراً، وافترقوا. وعاد «حبيب الله الطيب» إلى سفينته، و «فرسان الرمال» ذهبوا إلى المستودع، واختفى الوسيط في أرصفة الميناء. ولم يكن «ذو الرجل الرخوة» قد عاد بعد. ولم يكن هناك احد في المستودع. لا بد وأنهم جميعاً منتشرين في شوارع المدينة، بحثاً عن غداء. وخرج الثلاثة في ذلك الحين، وذهبوا لتناول طعامهم في رستوران رخيص قائم في السوق، وعند مخرج المستودع، أراد «القط» المبتهج جداً بنتيجة اللعب، أن يفركش بيدرو بالا، لكن هذا تلافاه وأوقع «القط» على الأرض.

- إنني مدرب، ايها الاحمق الكبير.

ودخلوا إلى الرستوران محدثين ضجة، واقترب منهم في حذر عجوز كان هو النادل. كان يعرف أن «فرسان الرمال» لا يحبون الدفع، وأن هذا الشاب المشطوب الوجه، كان أخطر الجميع ومع أنه كان هناك اشخاص كثيرون في الرستوران، لكن العجوز قال لهم.

- انتهى كل شيء. لم يعد لدينا طعام...

- غير هذه الاسطوانة يا عم، نحن نريد أن نأكل.

وضرب جواو غراندي على الطاولة بقبضته وقال:

- وإلاّ فسنقلب هذه الموائد كلها رأساً على عقب... حدق النادل العجوز فيهم، متردداً. وحينئذ رن «القط» بالنقود على الطاولة:

- اليوم، نعطي نقوداً

كانت هذه حجة حاسمة. وبدأ النادل يحضر الاطعمة: طبق من الساراباتيل [8] ثم طبق من «الفايجوادا» [9] و «القط» هو الذي دفع ثمن الطعام. وإثر ذلك، اقترح بيدرو بالا الذهاب نحو بروتاس، التي كانت تفصلها عنهم طريق طويلة، نظراً لأنهم يسيرون نحوها سيراً على الاقدام

وقال بيدرو بالا لا حاجة لركوب للترام. والافضل أن لا يعرف أحد اننا ذهبنا إلى هناك.

حينئذ قال «القط» إنه سيأتي فيما بعد. وانه سيلتقيهم هناك. كان لديه ما يفعله قبل ذلك. كان يريد أن يبلغ «دالفا» بأنه لن يحضر اليها هذه الليلة.

(٨) ساراباتيل: اكلة مقبلات برازيلية مصنوعة من كروش الخنزير وغنائمه.

(٩) الفاجوادا: وجبة وطنية برازيلية مصنوعة من اللوبياء السوداء، بشحم الخنزير واللحم.

والآن وصلوا إلى هناك، إلى محطة «بيتاغيرس»، منتظرين رحيل الشرطي. كانوا مختبئين في ظل بوابة كبيرة، ويلزمون الصمت. كانوا يسمعون صوت طيران الخفافيش التي كانت تهاجم على الاشجار حبات الزعرور الأميركي الناضجة. وفي النهاية غادر الشرطي. وبقوا في وضع المترقب حتى اختفى شبحه عند المنعطف. وحينئذ اجتازوا هذا المنعطف، ودخلوا إلى جادة المزارع، حيث اختبأوا تحت سقيفة.

لم يتأخر الرجل البتة. وقد قفز من سيارة تكسي عند زاوية الشارع، ودفع أجرة الركوب، وجاء، صاعداً الجادة. كان يسمع فقط صوت خطاه، وحفيف الاوراق التي يهزها الهواء على الأشجار. وحين اقترب منهم كفاية، خرج بيدرو بالا من تحت السقيفة. وسارع الآخرون للحاق به، وأحاطوه، مثل حراس أقوياء، يعرفون مهمتهم، واقترب الرجل من الجدار، المحاذي لخط سيره. واتجه بيدرو نحوه. وحين وصل إلى مستواه، توقف.

- هل يمكن أن تشعل لي هذه السيجارة ايها السيد؟

كان في يد بيدرو بالا سيجارة مطفأة. لم يجب الرجل بشيء. بل أخرج علبة الثقاب، وناولها للفتى. وأشعل بيدرو سيجارته، وأثناء اشعالها، حدق في الرجل. ثم سأله وهو يعيد اليه العلبة:

- ألست انت المسمى جويل؟

- وسأل الرجل، لماذا؟

إن «حبيب الله الطيب» هو الذي أرسلنا. واقترب جواو غراندي و «القط»، وحدق الرجل فيهم مندهلاً:

- إنهم مجرد أطفال. والعمل الذي أنا في سبيله، ليس عملاً لأطفال.

- قل لنا ما هو؟ نحن نعرف أن نقوم بعمل مناسب، هكذا رد بيدرو بالا، في حين كان زميلاه يقتربان

- ولكن ماذا لو كانت المسألة صعبة بحيث أنه حتى الرجال..

ووضع الرجل يده على فمه مثل شخص قال كل شيء لديه، بل وأكثر.

- نحن نعرف كيف نحتفظ بالسر، كما لو أنه كان في خزينة فولاذية. و «فرسان الرمال» يعملون دائماً عملاً متقناً.

- «فرسان الرمال»؟ هذه العصابة التي تتحدث عنها الصحف؟ أولاد مشردون؟ أهم انتم؟

- أجل، نحن ونحن من الذين يقودون أولئك الأولاد.

بدا الرجل كأنه يفكر. وأخيراً قرر موقفاً، وقال: كنت أفضل أن اكلف رجالاً بهذا العمل. ولكن نظراً لأن الامر يجب أن يجري في هذه الليلة بالدات، فالوسيلة...

- سوف ترى كيف اننا نحسن العمل. لا تقلق.

- تعالوا معي. ولكن دعوني اتقدمكم. واتبعوني ولكن على بعد خطوات مني.

اطاع الاولاد. وتوقف الرجل المجهول عند حاجز. فتحه، وهدأ برهة. ومن الداخل، جاء كلب راح يلحس يديه وأدخل الرجل ثلاثتهم معاً، واجتازوا معه طريقاً تحف بها الاشجار ثم فتح باب المنزل ودخلوا إلى غرفة صغيرة، ووضع الرجل معطفه وقبعته على كرسي، ثم جلس. وظل الغلمان الثلاثة واقفين. وأشار الرجل اليهم بالجلوس، وبادىء بدء راحوا ينظرون في حذر إلى الفوتيلات الواسعة المريحة. ذلك على الاخص، كانت حالة بيدرو وجواو غراندي، ذلك لأن «القط» كان قد جلس على أحد هذه الفوتيلات جلسة مريحة، وإن كان قد حافظ على عبوسه. وبعد اشارة جديدة من الرجل، جلس بيدرو وغراندي، رغم أن جواو غراندي اتخذ جلسة له على حافة المقعد، وكأنه كان يخشى توسيخه. كانت هيئة الرجل مرحة، مداعبة وفجأة نهض، ناظراً إلى بيدرو، الذي احس أي الرجل، انه الزعيم (أي بيدرو).

- إن ما سوف تفعلونه هو صعب وسهل في وقت معاً. والآن، ما يلزم، هو أنه لا يجب أن يعرف أحد بما ستفعلون. لا أحد بالمرة. أجاب بيدرو بالا: كن مطمئناً نحن نعرف ما نعمل.

أخرج الرجل ساعته من جيبه، وقال: الساعة الآن الواحدة والربع. إنه لا يعود إلا في الساعة الثانية والنصف...

كان ما يزال ينظر إلى «فرسان الرمال» بتردد.

وباغته بيدرو قائلاً:

- إذن، لم يعد هناك وقت طويل. فإذا أردت أن نعمل، فيجب أن نبدأ الآن، فوراً...

حينئذ صمم الرجل:

- بعد شارعين من هذا الشارع، توجد المزرعة الأخيرة على اليمين. يجب أن تجتنبوا الكلب، الذي لا بد وأنه مطلق السراح الآن. وهو كلب شرير. وقاطعه جواو غراندي.

- هل لديك هنا قطعة لحم؟

- لماذا؟

- لأجل الكلب.

- سوف أرى.

كان ينظر إلى الاولاد. كان يتساءل ما اذا كان يستطيع أن يعتمد عليهم.

- سوف تدخلون من العمق. وقرب المطبخ، في الجهة الواقعة خارج المنزل، يوجد غرفة فوق المرآب. إنها غرفة الخادم، الذي يجب أن يكون الآن في المنزل، منتظراً عودة سيده. وسوف تدخلون إلى غرفة الخادم. وعليكم أن تبحثوا عن رزمة كهذه، كهذه تماماً.

واتجه نحو جيب معطفه، وأخرج منه رزمة صغيرة مربوطة بشريط وردي.

- إنها مشابهة تماماً لهذه. ولا أدري إن كانت هذه الرزمة ما زالت في المنزل. ويمكن أن تكون في جيب الخادم. فإذا كان الامر كذلك، لن يعود بالامكان أن تفعلوا شيئاً.

وبدا أن يأساً مباغتاً قد ألم به.

- لو أمكنني أن اذهب بعد ظهر هذا اليوم،... اذن، بالتأكيد، كنت سأجد الرزمة في الغرفة. أما الآن فمن يدري؟

وغطى وجهه بيديه.

وقال بيدرو: حتى ولو كانت الرزمة مع الخادم، فنحن نستطيع اخذها.

- كلا. ومن المهم جداً أن لا يعرف احد أن الرزمة قد سرقت. إن ما سوف تفعلونه، هو ابدال رزمة بأخرى، اذا كانت الرزمة المطلوبة في الغرفة.

- وإذا كانت مع الخادم؟

- حينئذ..

وعاد وجه الرجل مجدداً للاكتئاب. وسمع جواو غراندي باسم يشبه اليزا، ولكن ربما كان هذا وهماً ألم بجواو غراندي، الذي كان احياناً يسمع ويرى اشياء لا يسمع بها ولا يراها أحد. كان الزنجي كاذباً جداً.

- اذن، يجب تغيير الرزمة بنفس الطريقة. ويمكنك أن تطمئن. إنك لا تعرف «فرسان الرمال»

بالرغم من يأسه، ابتسم الرجل من مرجلة بيدرو بالا:

- اذن، باستطاعتكم الذهاب، وبعد ذلك، لكن هذا يجب أن يكون قبل الساعة الثانية، عودوا إلى هنا. ولكن فقط حين تخلو الطريق تماماً وسأنتظركم وسوف نسوي حينئذ حساباتنا. لكن هناك شيء من واجبي أن انبهكم اليه باخلاص اذا اكتشف

امركم واعتقلتم، فلا تعرضوني للخطر ولن افعل شيئاً من أجلكم، لأن اسمي لا يمكن أن يظهر في كل هذه المسألة. وحاولوا حينئذ اخفاء هذه الرزمة، ولا تتصلوا بي بأية حجة كانت. المسألة أن نكسب أو نخسر..

رد بيدرو بالا: في هذه الحالة يجب تحديد الأجر مسبقاً. فكم تدفع؟

- إنني اعطي مئة ألف «رييس». ثلاثون لكل واحد منكم، وعشرة زيادة لك، وأشار إلى بيدرو.

تحرك «القط» على كرسيه فأشار له بيدرو بأن يصمت. وقال للرجل: سوف تدفع خمسين ألفاً لكل واحد منا، وكما يبدو لي، فإنك تظل رابحاً في هذه الصفقة. وهذا يشكل مئة وخمسين ألف «رييس». وإلاّ، فلا رزمة هناك.

لم يتردد الرجل البتة. ونظر إلى ساعة يده، حيث يركض العقربان.

- اتفقنا.

حينئذ قاطعه «القط».

- ليس ذلك لأننا لا نثق فيك. لكن المسألة يمكن أن تفشل، وقد قلت أنت نفسك أنك لن تهتم بما يمكن أن يحدث لنا.

- وماذا اذن؟

- من العدل والحالة هذه أن تعطينا سلفة كبيرة الآن.

وأيد جواو غراندي «القط» بإيمائة من رأسه. وردد بيدرو بالا آخر كلمات الآخر

- هذا عدل، نعم. اذا كنا لا نستطيع الاتصال بك بعد ذلك.

وقال الرجل بدوره: نعم هذا عدل.

وأخرج من جيبه محفظة، وسحب منها ورقة مالية بمئة ألف «رييس»، وناولها لبيدرو.

- والآن اذهبوا بسرعة. لقد تأخر الوقت.

وخرجوا وقال بيدرو بالا:

- لا تهتم. بعد ساعة سنعود ومعنا الرزمة.

وأمام المنزل (كان الشارع خالياً تماماً: وفي احدى النوافذ كان هناك ضوء، وشاهدوا شبح امرأة يذهب ويجيء) وضرب الزعيم جبينه.

- لقد نسيت قطعة اللحم لأجل الكلب.

نظر بيدرو بالا إلى النافذة المضاءة.

- الأمر سيان! كل هذا تفوح منه رائحة الخيانة - الزوجية ملء الانف. إن الشخص هناك كان «برتب» الصغيرة هنا، والآن توجد مع الخادم رزمة الرسائل التي كانا يتبادلانها، وهو يريد اعطاءها. وهذه الرزمة يفوح منها العطر، وهذا ما ينبغي أن يحس به الاخير أيضاً.

وأشار إلى الاثنين بانتظاره في الجانب الآخر من الشارع، واقترب من بوابة المنزل. وما أن استند اليها، حتى اقترب منه كلب كبير وهو ينبح. وربط بيدرو بالا حبلاً رفيعاً بمزلاج البوابة، في حين كان الكلب يروح ويجيء، نابحاً بصوت خفيض، ثم نادى بيدرو رفيقيه.

- أنت (واشار إلى «القط») ابق هنا، في الشارع لاعطاء الانذار اذا داهمنا احد. أما انت، غراندي فادخل معي.

وتسلقا إلى ارتفاع الحاجز الصغير للجدار. وشد بيدرو بالا على المزلاج بالحبل الرفيع. فانفتحت البوابة. وكان «القط» قد ذهب إلى زاوية الشارع وحين رأى الكلب الباب مفتوحاً، اندفع نحو الشارع، وتأخر هناك وهو يتفحص علبة قاذورات. وقفز بيدرو بالا وجواو غراندي إلى أسفل الجدار، وأقفلا البوابة لكي لا يستطيع الكلب العودة إلى المنزل، وتقدما بين الأشجار وفي نافذة المنزل المضاءة، استمر شبح المرأة يروح ويجيء. وقال جواو غراندي بصوت خفيض جداً.

- إنني اتألم من أجلها

- من الذي طلب منها أن تنام مع الآخرين؟..

وقف الزنجي قرب المنزل لينقل الانذار إلى «القط»، في حالة مداهمة أحد لهم، وكان يستخدم في هذه المناسبات انواعاً خاصة من الصفير. ودار بيدرو بالا حول المنزل، ووصل إلى المطبخ. كان بابه مفتوحاً، كما كان مفتوحاً أيضاً باب الغرفة القائمة فوق المرآب. بيد أن بيدرو قبل أن يرتقي السلم المؤدي إلى الغرفة، القى نظرة عبر باب المطبخ ورأى بيدرو فيه رجلاً فقال «لا بد أنه الخادم المذكور»، هكذا فكر بيدرو، وبسرعة، ابتعد بيدرو نحو سلم المرآب. وصعد على الدرجات أربعاً فأربعاً، ودخل إلى غرفة الرجل. لم يكن هناك نور، وأقفل بيدرو الباب، وأشعل عود ثقاب لم يكن هناك سوى سرير، وحقيبة. وانطفأ عود الثقاب، لكن بيدرو كان قد وصل إلى السرير، الذي بحث فيه بكامله وإثر ذلك، نظر تحت الفراش. وهنا ايضاً لم يجد شيئاً. فقفز حينئذ من السرير واقترب من الحقيبة دون أن يحدث ضجة، ورفع غطاءها، واشعل عود ثقاب امسكه بأسنانه. وقام بالبحث في الثياب باحتراس: ولم يجد

شيئاً! وبصق عود الثقاب، ثم تذكر أن الرجل ربما كان لا يدخن، فوضع علبة الثقاب في جيبه، واتجه نحو المشجب المثبت في الجدار. ولم يجد شيئاً في الملابس المعلقة على المشجب. وأشعل بيدرو بالا عود ثقاب أخيراً، وقام بتفتيش كل الغرفة.

- من المؤكد أن الرزمة هي مع الرجل. والآن سوف نتارح.

فتح باب الغرفة ونزل على درجات السلم، ووصل إلى باب المطبخ، كان الرجل ما زال جالساً، وحينئذ، لاحظ بيدرو بالا أن الرجل كان جالساً على الرزمة بالذات. كان طرف منها يبرز تحت ساق الرجل. وحسب بيدرو أن كل شيء قد ضاع. فكيف يستطيع سحب الرزمة من تحت هذه الساق؟ وابتعد عن باب المطبخ واتجه إلى الموضع الذي يقف فيه جواو غراندي. وفكر أن يهاجم الرجل بالاشتراك مع جواو غراندي... ولكن حينئذ ستكون هناك صيحات،... وسيطلع الجميع على السرقة. والذي استخدم لهذا العمل لم يكن يريد أي شيء مما ربما يحصل هنا. وفجأة خطرت لبيدرو فكرة. واقترب من الموقع الذي ترك فيه غراندي، وهو يصفر بصوت منخفض جداً. وسرعان ما ظهر جواو غراندي. وقال له بيدرو بالا بصوت منخفض جداً هو أيضاً: اسمع يا غراندي. إن الخادم جالس على طرف الرزمة. عليك أن تذهب إلى الباب المؤدي إلى الشارع، وتضغط على الجرس ثم تفر على الفور. ذلك لكي يقف الخادم، وأسرق أنا الرزمة. ولكن سارع إلى الاختباء بسرعة، بحيث لا يراك الرجل، ولكي يظن أنه رأى حلماً لا حقيقة. اتح لي الوقت للوصول إلى المطبخ.

وعاد بسرعة إلى باب المطبخ، وبعد دقيقة، رن الجرس. فنهض الخادم بسرعة، وزرر سترته واتجه نحو مدخل المنزل عن طريق الرواق، حيث اضاء الكهرباء. ونفذ بيدرو بالا إلى المطبخ. وقام بتبديل الرزمة، واتجه نحو الزرعة. وقفز عن الجدار، وصفر للـ «القط» ولجواو غراندي. وسارع «القط» في الحضور. لكن جواو غراندي لم يظهر. وذهب من جهة إلى أخرى، لكن الزنجي لم يظهر أيضاً. بدأ بيدرو يفقد الصبر، خائفاً من أن يكون الخادم قد باغت جواو غراندي. ومن أن يكون الآن يتقاتل معه. لكنه أي بيدرو بالا، حين مر من هذا الجانب، لم يلاحظ أية ضجة.

وقال: إذا تأخر أيضاً فسوف ندخل.

وصفرا مجدداً، ولم يحررا أي جواب. وحزم بيدرو بالا امره.

- لنعد إلى الداخل.

ولكن سرعان ما بلغتها صفرة جواو غراندي الذي لم يتأخر عن اللحاق بها.

وسأله بيدرو:

- أين اختبأت؟

كان «القط» قد امسك الكلب من مقوده. وأخرجه من الجانب الآخر للبوابة. وسحب حل المزلاج الرفيع، واختفيا في الجانب الآخر من الشارع. في هذا الموضع، أوضح جواو غراندي الموقف.

- حين وضعت اصبعي على الجرس، أصيبت المرأة التي فوق بما يشبه الجنون الكلي. ففتحت هي النافذة، وقد خيل إليّ أنها ستلقي بنفسها منها. كانت تعلم أن هذا يثير الخوف. بل كانت تبكي وتنتحب. حينئذ أحسست بالألم. وتسلقت الانبوب لأقول لها أن لا تنتحب، وأنه لم يعد هناك سبب لذلك البكاء، نظراً لأننا سرقنا الرسائل. ونظراً لأنني اضطررت لأوضح لها كل شيء، فقد استغرق ذلك مني بعض الوقت.

وسأل «القط» مفعماً بالفضول:

- لقد أحست بالسرور، أليس كذلك؟

- بلى. أحست بالسرور. وقد مسحت بيدها على رأسي؛ ثم شكرتني. وسألت هي الله أن يحميني

- كف عن الحماقة، أيها الزنجي. سألت فقط إن كانت مسرورة. ولكن فقط من أجل السرير. وإذا كنت قد رأيت ذلك الداعر...

لم يجب الزنجي. ودخلت سيارة في الشارع. وربت بيدرو بالا على كتف الزنجي، وكان جواو غراندي يعرف أن الزعيم يوافق على ما فعل، أي الزنجي. حينئذ اضاء وجهه بالفرح والاستبشار، وهمس.

- كنت أحب فقط أن أرى رأس الخادم حين سيفتح رب العمل الرزمة ولا يجد فيها ما كانا ينتظران.

كانوا قد دخلوا شارعاً آخر، وانطلقوا ثلاثتهم لا يلوون على شيء، مطلقين عاصفة ضحك. هو ضحك «فرسان الرمال» الذي كان بمثابة نشيد شعب باهيا.

* * *

أضواء مضمار الخيول الخشبية

لم يكن « المضمار الياباني الكبير » سوى لعبة خيل برازيلية صغيرة تصل، بعد جولة مخزية عبر مدن الداخل النائمة، عن ... اشهر الشتاء هذه، حين تكون الامطار تهطل بلا انقطاع، وعيد الميلاد ما زال بعيداً أيضاً. ولشدة ما نَصُل لونا الجياد الخشبية ـ وكانا في الماضي أزرق وأحمر، والآن أصبح الازرق ابيض تقذراً، وصار الاحمر لوناً زهرياً تقريباً ـ ولكثرة القطع التي كانت تنقص الجياد الخشبية، وبعض المقاعد بحيث قرر السيد فرانسا، نهوزنو فرانسا، أن يعرض العاب الجياد الخشبية في ايتاباجيب، وليس في احدى الساحات المهمة في المدينة، وفي ايتاباجيب لم تكن العائلات غنية جداً؛ وهناك كثير من الشوارع العمالية فقط، وباستطاعة الاولاد الفقراء أن يقدروا مضمار الخيول الخشبية العتيقة الناصلة اللون. وكانت الشاشة مثقوبة هي أيضاً. هذا بالاضافة إلى صعوبة هائلة كانت ترغم المضمار على أن يتوقف عرضه على مزاج المطر. لقد كان لهذا المضمار عهده البديع، وكان مفخرة اولاد ماسايو. في أزمنة ماضية، ذهبت دون رجعة، كان مضمار الخيول الخشبية الملونة يقوم بين جبل رومي ونفق اصطناعي، دائماً في نفس الساحة، وفي أيام الآحاد والاعياد، كان اولاد الاغنياء اللابسين ثياب البحارة، أو أزياء صغار اللوردات الانجليز، والبنات الصغيرات بالملابس الهولندية أو بالفساتين الحريرية الناعمة يأتون جميعاً للجلوس على جيادهم المفضلة. وكان أصغرهم سناً يحتلون المقاعد مع مرضعاتهم. وكان أهل الاولاد يذهبون إلى الجبال الروسية الاصطناعية وآخرون كانوا يفضلون النفق حيث يستطيعون حشر النساء، ويجسون سيقانهن ومؤخراتهن في كثير من الاحيان. كان بارك العاب نهوزنهو فرانسا في ذلك الحين يشكل نعيم المدينة. وأفضل من ذلك كله، هو أنه كان يدر النقود دائراً بصورة لا تكل باضوائه المتعددة الألوان. كان نهوزنهو يجد الحياة جميلة والنساء جميلات، والرجال يلاطفونه، لكنه كان يرى أيضاً أن المشروب جيد هو أيضاً وأنه يجعل الرجال أكثر لطفاً، والنساء أكثر جمالاً. وهكذا شرب في البدء النفق، ثم الجبل الروسي. واثر ذلك، ونظراً لأنه لم يكن يريد الانفصال

عن مضمار الخيول الخشبية، الذي كان متعلقاً به بشكل خاص، وإلى درجة كبيرة، فقد قام بتفكيكه في أحد الايام بمساعدة بعض الاصدقاء. وبدأ بارتياد مدينتي الاغواس وسيرجيب. وخلال هذا الوقت، كان الدائنون ينعتونه بجميع أسماء الطيور، التي يعرفونها. لقد كان له ماض جميل، نهوزنهو فرانسا، مع مضمار خيوله الخشبية! وبعد أن ارتاد جميع المدن الصغيرة في الولايتين وبعد أن سكر في جميع خماراتها، دخل إلى ولاية باهيا، ووصل به الحد إلى اقامته عرضاً لعصابة لامبياو.

كان في قرية فقيرة في داخل البرازيل، وكان يفتقر إلى النقود، ليس فقط لاجل نقل مضماره، بل كان لا يجد ما يدفع به اجرة الفندق البائس الذي ينزل فيه، والذي كان الوحيد في تلك البلدة، ولم يكن لديه ثمن كأس واحد من الخمرة، ولا البيرة التي لم تكن دائماً مثلجة، لكنه كان يحبها رغم ذلك. إن مضمار الخيول الخشبية، المقام على كلأ ساحة « الماتريس »، كان متوقفاً منذ اسبوع. وكان نهوزنهو فرانسا ينتظر ليلة السبت وبعد ظهر الأحد ليرى اذا كان سيكسب بعض المال للانتقال إلى مكان افضل. لكن يوم الجمعة دخل لامبياو إلى القرية مع ٢٢ رجلاً، وحينئذ تحسن كثيراً عمل المضمار. نهؤلاء الكانغاسيروس [١٠]، الكبار، كانوا مثل الأولاد ـ وهم أي الكانغاسيروس في ذمتهم عشرون أو ثلاثون قتيلاً ـ وجدوا مضمار الخيول الخشبية محققاً لمتعة لذيذة، وكانوا يرون أن النظر إلى أضوائه الدوارة، وسماع الموسيقى العتيقة للبيانو الآلي التابع للمضمار، وركوب هذه الخيول الخشبية البيراء، تحقق لهم اعظم متعة وأكبر سرور. إن مضمار نهوزنهو فرانسا قد انقذ البلدة من النهب. والفتيات من الاغتصاب، والرجال من الموت. إن الجنديين التابعين لشرطة باهيا، واللذين كانا يصبغان حذائيهما امام مركز الشرطة، قد اعدمهما الكانغاسيروس، وذلك أيضاً قبل أن يرى الكانغاسيروس المضمار المقام على ساحة « الماتريس »، وربما، بدون شك كان يمكن أن يعفو لامبياو حتى لشرطة باهيا في ليلة السعادة الكبرى هذه، بالنسبة لعصابة الكانغاسيروس. وأصبح هؤلاء، حينئذ مثل الاولاد، وذاقوا هذه السعادة التي لم يسبق لهم أن ذاقوها حين كانوا أولاد فلاحين فقراء: امتطاء جواد خشبي، والدوران معه حيث تعزف موسيقى بيانو آلي، وحيث الاضواء متعددة الألوان: زرقاء وخضراء وصفراء وبنفسجية وحمراء مثل لون الدم المتفجر من أجساد من يتعرضون للاغتيال.

هذه القصة هي التي رواها نهوزنهو لا « الكورع الناشف »، (والتي حرضته بشدة)،

(١٠) الكانغاسيروس: فلاحون فقراء يتحولون إلى قطاع طرق.

ولـ « ذي الرجل الرخوة » في فترة بعد الظهر تلك حين التقاهما في حانة « باب البحـر » (بورتا دي مار) ودعاهما لمساعدته في تحريك مضمار الخيول الخشبية ، خلال الايام التي سيقام فيها هذا المضمار في باهيا ، ببلدة ايتاباجيب ، ولم يكن باستطاعته أن يحدد لهما أجراً ، ولكن ربما استطاع كل منهما أن يكسب زهاء خمسة آلاف ريس كل ليلة. وحين عرض « دو الكورع الناشف » قدرته على تقليد مختلف انواع الحيوانات ، تحمس نهوزنهو فرانسا له غاية الحماسة ، وطلب من النادل زجاجة بيرة جديدة وأعلن ان « ذا الكورع الناشف » سيظل عند باب المضمار ليدعو الجمهور إلى الدخول ، في حين أن « ذا الرجل الرخوة » سيساعده على الآلات وسيتكلف امر البيانو الآلي . وهو نفسه سوف يبيع بطاقات الدخول عند توقف المضمار . وحين يسير المضمار ، يتكلف « ذو الكورع الناشف » بالمسألة .

وقال نهوزنهو وهو يغمز بعينيه وبين الحين والحين ، نخرج لشرب كأس ، في حين يقوم الآخر بخدمة الأثنين

لم يسبق « لذي الكورع الناشف » و « لذي الرحل الرخوة » أبداً أن تقبلا فكرة بمثل هذه الحماسة . لقد سبق لهما أن شاهدا مراراً مضماراً للخيول الخشبية ، لكنهما كانا يريانه دائماً عن بعد ، محاطاً بالاسرار ، وجياده السريعة يمتطيها اولاد الاغنياء ، السريعي البكاء ، بل إن « صاحب الكورع الناشف » قد نجح - في احد الايام حين تسلل إلى بارك العاب اقيم في متنزه عام - بشراء بطاقة دخول ، لكن الحارس طرده من ذلك المكان لأنه كان رث الثياب ، وإثر ذلك لم يقبل قاطع التذاكر أن يعيد له ثمن البطاقة ، مما دفع « ذا الرجل الرخوة » لأن يستولي على جارور الصندوق الذي كان مفتوحاً ويحتوي على جميع نقود الفرقة ، وكان عليه أن يختفي من المتنزه العام بصورة سريعة جداً . في حين كانت تسمع في جميع أرجائه صيحات « إلى اللص ، إلى اللص » ! . وحدث اضطراب وهياج هائلان بل رهيبان ، في حين كان « ذو الرجل الرخوة » يهبط بهدوء تام على طريق « غامبوا دى سيما » ، حاملاً في جيوبه على الاقل خمسة اضعاف ما دفعه ثمن بطاقة الدخول . لكن « ذا الرجل الرخوة » كان يفضل ، طبعاً ، أن يدور ممتطياً هذا الجواد الهائل ، الذي له رأس تنين ، وهو أروع جواد تضمه مجموعة المضمار البديعة . وقد أحس منذ ذلك الحين بالبغضاء ازاء رجال الشرطة ، وبحب اكبر للمضمارات البعيدة . والآن ، ها قد جاء رجل يدفع ثمن البيرة ، ويمنحه معجزة حين يدعوه للعيش بضعة أيام مع مضمار حقيقي للخيول الخشبية البديعة الألوان ، ولأن يتحرك معه ، ويمتطي خيوله ، ويرى عن قرب دوران اضوائه المتعددة الألوان . وبالنسبة « لذي الرحل الرخوة » لم

يكن نهوزنهو ذلك السكير الذي يجالسه حول مائدة حانة « بورتا دي مار » البائسة ، ففي نظره ، كان نهوزنهو يمثل كائناً خارقاً شيئاً مثل الله الطيب الذي يصلي له « سكر الشمير » شيئاً مثل كسانغو ، شفيع جواو غراندي ، و « حبيب الله الطيب » ذلك لأنه لا الأب جوزيه بيدرو ، ولا (ماي - دي سانتو - دو آنينها) كانا قادرين على اجتراح معجزة كهذه . وفي ليالي باهيا ، في ساحة ايتاباجيب ، سوف تدور اضواء مضمار الخيول الخشبية بجنون ، ويقوم باحيائها وتحريكها « ذو الرجل الرخوة » . كان ذلك كأنما في حلم ، حلم يختلف تماماً عن الاحلام التي كان هو « ذو الرجل الرخوة » قد اعتاد أن يراها طوال ليالي قلقة . ولأول مرة ، نديت عيناه بدمع لم تكن ناجمة لا عن العذاب ولا عن الغضب . كانت عيناه الرطبتان تتأملان نهوزنهو فرانسا بعبادة . فمن أجله ، كان « ذو الرحل الرخوة » مستعداً حتى لذبح رجل بالموسى التي يحملها بين السطال والكنزة العتيقة السوداء التي كان يلبسها بمثابة سترة .

- هذا شيء بديع ورائع ، هكذا قال بيدرو بالا وهو ينظر إلى مضمار الخيول الخشبية الملونة بعد اقامته .

وكان جواو غراندي يطرف بعينيه لكي يرى بصورة أفضل . وكانت قد علقت المصابيح الزرقاء والخضراء والصفراء والحمراء .

إنه قديم وناصل الألوان مضمار نهوزنهو فرانسا ، لكن له جماله . وربما كان هذا الجمال يكمن في أضوائه أو في موسيقى البيانو الآلي العتيق ، (فالسات قديمة لأزمنة هاربة) ، أو ربما في جياده الخشبية الملونة . وبينها كان يوجد مكان يجلس فيه الاطفال الصغار . أجل ، كان له جماله ، ذلك لأنه كان هذا هو رأي « سرسان الرمال » المجمعين على أنه جميل جداً ورائع . وما هم أن يكون عتيقاً ومحطماً ، وممحو الألوان ، اذا كان يروق للأولاد ؟

كانت مفاجأة لا تصدق تقريباً حين وصل في تلك الليلة إلى المستودع « ذو الرجل الرخوة » ، معلناً أنه هو و « دو الكورع الناشف » ، سوف يعملان بضعة أيام في مضمار للخيول الخشبية الملونة . كثيرون لم يصدقوهما . وظنوا أن هذه مزحة جديدة من « ذي الرحل الرخوة » . حينئذ دهبوا ليسألوا « ذا الكورع الناشف » الذي كان ، يبقى كعادته جالساً في زاويته ، بلا كلام ، يتفحص مسدساً سرقه من محل لبيع الأسلحة وأيد « ذو الكورع الناشف » هذا النبأ بايماءة من رأسه ، وكان يقول بين الفينة والفينة :

- لقد ركب لامبياو أحد هذه الخيول ، فعلاً . إن لامبياو هو عرابي ...

ودعاهم « دو الرجل الرخوة » جميعاً لأن يذهبوا ويشاهدوا مضمار الخيول الخشبية

في الليلة القادمة ، بعد أن تتم اقامته . ثم ذهب لملاقاة نهوزنهو فرانسا . في تلك اللحظة ، فإن جميع القلوب الصغيرة التي كانت تنبض في المستودع قد غبطت « ذا الرجل الرخوة » على سعادته الكبرى ، وحتى « سكر الشعير » الذي كانت لديه صور قديسين على جداره . وحتى جواو غراندي الذي كان من المقرر أن يذهب هذه الليلة بالذات مع « حبيب الله الطيب » إلى رقص الكاندونبلية دي بروكوبيو ، في بلدة ماتوتو . وحتى « الاستاذ » بالذات ، الذي كان يقرأ كتباً ، ومن يدري ما اذا كان بيدرو بالا هو أيضاً ، هو الذي لم يكن يحسد أحداً أبداً لأنه كان زعيمهم جميعاً .. أجل ، جميعهم حسدوا « ذا الرجل الرخوة » ، ـ كما حسدوا « ذا الكوع الناشف » الذي كان جالساً في زاويته ، وشعره المتناثر الاشعث بدون تسريح ، وعيناه مفتوحتان نصف فتحة ، وفمه فاغر قليلاً في تكشيرة غضب ، وهو يشهر مسدسه اما على واحد من الصبيان ، واما على جرذ يمر قربه ، أو على النجوم التي كانت كثيرة جداً في السماء .

وفي الليلة التالية ، ذهبوا جميعاً مع « ذي الرجل الرخوة » ، و « ذي الكوع الناشف » (كان هذان الاخيران قد قضيا النهار في الخارج يساعدان نهوزنهو في اقامة مضمار الخيول الخشبية) لمشاهدة هذا المضمار بعد اقامته . كانوا واقفين امامه ، وقد خلب الباهم جماله ، وقد فغرت افواههم لفرط الاعجاب . وكان « ذو الرجل الرخوة » يبين بالتفصيل كل جمالات المضمار . وكان « ذو الكوع الناشف » يصحبهم واحداً واحداً لكي يتأملوا باعجاب الجواد الذي امتطاه عرابه ، فيرغولينو فريرا لامبياو . وكان هناك زهاء مئة من الاولاد الذين وقفوا يتأملون مضمار نهوزنهو فرانسا المسن ، الذي كان في تلك الساعة ، يسكر سكرة هائلة في حانة « لابورتا دي مار » (« باب البحر ») .

قام « ذو الرجل الرخوة » باطلاعهم على الآلة (وهي محرك صغير كان كثيراً ما يتوقف عن العمل) باعتزاز المالك . ولم يعد « ذو الكوع الناشف » يترك الحصان الذي امتطاه لامبياو . وكان « ذو الرجل الرخوة » يعنى عناية كبيرة بمضمار الخيول الخشبية ، ولم يكن يسمح لاحد بأن يمسها أو يحركها مهما كان السبب .

حينئذ سأل « الاستاذ » :

ـ هل أصبحت تعرف تشغيل الآلات ؟

ـ غداً سوف اعرف ذلك ، هكذا اجاب « ذو الرجل الرخوة » ، ببعض الاستياء . وقال : غداً السيد نهوزنهو سوف يعلمني ذلك .

ـ اذن غداً ، بعد أن تنهي عملك ، تستطيع أن تدير مضمار الخيول الخشبية لأجل الاصدقاء وحدهم . انك ستفعل ما ينبغي لتسيير المنظومة ، ونحن نجلس للفرجة

ساند بيدرو بالا الفكر بحماسة . وكان الآخرون ينتظرون بقلق ، جواب « ذي الرجل الرخوة » وهذا الأخير قبل . وحينئذ صفق العديدون ، وأطلق آخرون الصيحات . في هذه اللحظة ، ترجل « ذو الكوع الناشف » عن الحصان الذي سبق أن امتطاه لامبياو ، وأقبل (« ذو الكوع الناشف ») نحوهم .

ـ هل تريدون أن تروا شيئاً جميلاً ؟

كان الجميع يريدون ذلك ، صعد السيرتانيجو [11] إلى المضمار ، وسيّر البيانو الآلي ، وأسمعهم انغام رقصة فالس من أيام زمان . كان وجه « ذي الكوع الناشف » القاتم ـ يضاء بابتسامة كان يتأمل البيانو الآلي ، ويراقب الاولاد المأخوذين بالفرح . كان هؤلاء يصغون بحرارة إلى الموسيقى التي كانت تتفجر من بطن مضمار الخيول الخشبية ، في سحر ليل باهيا ، وذلك فقط من أجل آذان « فرسان الرمال » المغامرة والشقية . كان الجميع صامتين . واقترب منهم عامل كان يمر في الطريق ، حين رأى تجمع الاولاد على هذا السحر . هو أيضاً لبث ساكناً بلا حراك وهو يصغي إلى هذه الموسيقى القديمة حينئذ غمر ضوء البدر الجميع . وازداد لمعان النجوم في السماء . وازداد هدوء البحر (لعل اميرة البحر ايامنجا جاءت هي ايضاً لسماع الموسيقى) ولم تعد المدينة سوى مضمار كبير كان يدور عليه على خيول غير مرئية « فرسان الرمال » . في هذه اللحظة الموسيقية ، أحسوا هم بأنهم سادة المدينة . وأحب بعضهم بعضاً ، وأحسوا بأنهم أخوة . لأن الجميع كانوا معاً محرومين من الحنان والرعاية ، والآن اصبح لديهم حنان الموسيقى ورعايتها . ومؤكد تماماً أن « ذا الكوع الناشف » لم يكن الآن يفكر في لامبياو . وبيدرو بالا لم يعد يفكر في اليوم الذي سيصبح فيه زعيم جميع الملاندروس [12] في المدينة ، وكف « ذو الرجل الرخوة » عن التفكير في الارتماء بالبحر حيث جميع الاحلام جميلة لأن الموسيقى كانت تتفجر من بطن مضمار الخيول الخشبية القديم ، لهم وحدهم ، وللعامل الذي وقف يصغي إلى الموسيقى . وكانت هذه الموسيقى رقصة فالس قديمة وحزينة ، ولحناً منسياً لرجال المدينة

* * *

(١١) السيرتانيجو : ولد من اهل سيرتاو

(١٢) فتيان دفعهم الفقر إلى تكوين عصابات من قاطعي الطرق واللصوص ، الحاملين مع ذلك قيثارات للرقص والغناء .

ـ ملاحظة من المترجم ـ

كان اشخاص يتوافدون من جميع الشوارع. انها ليلة سبت: غداً، لن يذهب الرجال إلى عملهم. وهذه الليلة يستطيعون التأخر في الطرقات. كثيرون منهم فضلوا الحانات وكانت حانة «باب البحر» تغص بالرواد، لكن الذين لديهم اولاد جاؤوا معهم إلى الساحة السيئة الاضاءة وبمثابة تعويض، كانت هنا أضواء مضمار الخيول الخشبية، الدوارة كان الاولاد ينظرون إلى الاضواء والخيول ويصفقون بأيديهم فرحاً. وعند الباب، كان «ذو الكوع الناشف» يطلق صرخات حيوانات ويدعو الجمهور إلى الدخول. وكان يحمل جعبة خرطوش كأنه يصطاد في براري سرتاو. لقد اعتقد نهوزنهو أن هذا يستلفت انتباه الناس، وكان «ذو الكوع الناشف» يشبه حقاً الكانغاسيرو، بقبعته الجلدية، وجعبته الصيادية. وراح يحاكي صيحات الحيوانات حتى اجتمع حوله رجال ونساء وأولاد. وحينئذ جعل يعرض بطاقات للدخول كان الآخرون يشترونها. كانت البهجة والفرح يغمران الساحة بأسرها. وأضواء مضمار الخيول الخشبية تبهج الجميع. وفي الوسط، كان «ذو الرجل الرخوة» مقرفصاً يساعد نهوزنهو فرانسا في تشغيل المحرك. والمضمار يدور مثقلاً بالأولاد. والبيانو الآلي يطحن ألحانه القديمة؛ و«ذو الكوع الناشف» يبيع بطاقات الدخول.

وفي الساحة، كان ازواج العشاق يتنزهون. وربات المنازل يشترين قطع البوظة (الاسكيمو)، والشربات؛ وكان شاعر جالساً قرب البحر، ينشد قصيدة طويلة يتغنى فيها بأضواء المضمار وبهجة الاطفال. كان مضمار الخيول الخشبية يضيء الساحة وجميع القلوب وفي كل لحظة، كان الناس يصلون من الشوارع والزواريب. و«ذو الكوع الناشف» يحاكي اصوات الحيوانات وهو بملابس الكانغاسيرو. وحين كان المضمار يتوقف عن الدوران، كان الاولاد يجتاحونه مبرزين بطاقات الدخول، وكان من الصعب كبحهم وحين كان احدهم لا يجد مكاناً له، كانت ملامح وجهه تكتسي زعلاً حزيناً، في حالة قريبة من اليأس، ويظل واقفاً ينتظر دوره بفارغ الصبر. وحين يتوقف مضمار الخيول الخشبية. كان ممتطو الجياد يرفضون النزول. كان يتوجب حينئذ أن يصرخ «ذو الرجل الرخوة» بهم:

ـ هيا، انزلوا! هيا، انزلوا! أو اشتروا بطاقة ثانية.

كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لجعلهم يغادرون الجياد الخشبية القديمة، التي لم تكن تتعب أبداً من السباق الابدي. وكان غيرهم يركبون المطايا، ويستأنف السباق، وتدور الأضواء، وتنصهر جميع الالوان في لون واحد غريب، والبيانو الآلي يصب انغامه القديمة.

وكان على المقاعد الخشبية البسيطة أيضاً أزواج من العشاق، وهم، ومضمار الخيول الخشبية الملونة يدور في بهجة ورشاقة شعبية، يتبادلون همساً كلمات الحب. بل كان هناك عشاق ومعشوقات يتبادلون قبلات شبه مختلسة حين يتوقف المحرك هنيهة، وتنطفىء الانوار. حينئذ كان نهوزنهو فرانسا و«ذو الرجل الرخوة» يعكفان على المحرك ويتفحصان العطل حتى يستأنف الدوران، متلافين احتجاجات الاولاد لقد أصبح «ذو الرجل الرخوة» يعرف جميع اسرار المحرك.

وفي لحظة ما، كان نهوزنهو فرانسا يرسل «ذا الرجل الرخوة» ليحل محل «ذي الكوع الناشف» في بيع بطاقات الدخول، ويتيح لـ «ذي الرجل الرخوة» فرصة لامتطاء أحد الجياد الخشبية، وكأن الغلام الصغير يختار الحصان الذي سبق أن امتطاه لامبياو، وكان طوال وقت الدورة؛ يمضي قافزاً كأنه يمتطي جواداً حقيقياً، ـ وكان يسدد اصبعه وكأنه سيطلق النار على الاولاد الذين امامه، وكان يراهم في تخيله يسقطون في بركة من الدم، تحت طلقاته المتكررة. وكان الجواد يعدو، وتزداد سرعته باستمرار، لكن الغلام كان يقتلهم جميعاً لأنهم كانوا في نظره جنوداً أو مزارعين اغنياء وإثر ذلك. كان يمتلك على المقاعد جميع النساء الحسناوات، وينهب القرى، والمدن، وقطارات السكك الحديدية، راكباً صهوة جواده، ومشهراً بندقيته.

وإثر ذلك، يأتي دور «ذي الرجل الرخوة». كان يذهب إلى جواده الخشبي الازرق أو الاحمر، وهو صامت؛ كان انفعال غريب يستولي عليه كان يمضي كما يذهب المؤمن إلى القداس. والعاشق إلى صدر المرأة المحبوبة، واليائس نحو الموت. كان يمضي شاحباً، اعرج. ويمتطي جواداً أزرق، يحمل ثلاثة نجوم على كتفه الخشبية. كانت شفتاه مزمومتين، وأذناه لا تسمعان موسيقى البيانو الآلي. كان يرى فقط الانوار التي تدور معه، وكان يتعلق بيقين في داخل نفسه بأنه في مضمار من الخيول الخشبية يدور في دائرة، مثل جميع هؤلاء الأولاد الذين لهم أب وأم ومنزل، وأشخاص يقبلونهم، وكائنات تحبهم. كان يتصور أنه مثلهم، ويغمض عينيه لكي يحتفظ بصورة أفضل بهذا اليقين. وهو لم يعد يرى الجنود الذين أوسعوه ضرباً، والرجل لابس السترة الذي كان يضحك. لقد قتلهم «ذو الكوع الناشف» في ركوبه. و«ذو الرجل الرخوة» ينطلق على جواده مهيباً ثابت الجنان. كان يحس وكأنه ينطلق طائراً على موج البحر، صاعداً نحو النجوم، في أروع رحلة في العالم وأكثرها اثارة للدهشة. رحلة لم يسبق لـ «الاستاذ» أبداً أن قرأ مثلها ولا تخيلها كان قلبه ينبض بقوة، بقوة إلى حد أنه شد عليه بيده.

في تلك الليلة، لم يأتِ «فرسان الرمال». وليس فقط أن نشاط المضمار على الساحة انتهى في وقت متأخر (في الساعة الثانية فجراً كانت الجياد ما زالت تدور)، بل أيضاً لأن العديد من أفراد «الفرسان»، بمن فيهم بيدرو بالا، و«الشارب اللطيف»، وباراندا، و«الاستاذ» كانوا منشغلين بشؤون مختلفة. وقد تم اتفاقهم، بالنسبة لليوم الثاني، على الالتقاء حوالى الساعة الثالثة أو الرابعة صباحاً، وسأل بيدرو بالا، «ذا الرجل الرخوة» إذا كان قد أصبح يعرف تشغيل المحرك، وقد أوضح بيدرو قائلاً:

- لا فائدة في أن تلحق الأذى بمعلمك.

- لقد أصبحت أعرف كل شيء عن ظهر قلب، وعلى أطراف اصابعي. إنه نموذج للعمل المنهك. وسأل «الاستاذ»، الذي كان يلعب الضامة مع جواو غراندي:

- ألا ترى أنه سيكون من المناسب، أن «نخطف رجلنا» إلى الساحة، بعد ظهر اليوم؟ من يدري، قد يكون هناك ما يستحق أن نذهب؟

قال بيدرو بالا: أنا من جهتي سأذهب. لكنني أعتقد أننا لا نستطيع أن نذهب إلى هناك بعدد كبير. فالجماعة يمكن أن يصابوا بقلق لدى رؤيتهم عدداً كبيراً منا، دفعة واحدة.

- يقول «القط» انه لن يذهب في فترة بعد الظهر. إنه مشغول، بما أنه سيكون منهمكاً ليلاً في مضمار الخيول الخشبية.

فقال «ذو الرجل الرخوة» ساخراً:

- الا تستطيع أن تقضي يوماً بدون أن تحرك فيه فخذيك مع تلك المومس، ما قولك؟ سيكون مصيرك تاعساً يا صديقي.

ثم يجيب «القط». إن جواو غراندي هو أيضاً لن يذهب في فترة بعد ظهر اليوم. اذ أنه قد قرر أن يلتقي بـ «حبيب الله الطيب» لكي يذهبا لتناول الطعام عند دون آنينها لاماي دي سانتو. وفي النهاية، تقرر أن يذهب فريق صغير للعمل في الساحة. ويستطيع الباقون الذهاب حيثما يشاؤون. وفي الليل فقط، سوف يجتمعون كلهم لامتطاء خيول المضمار الملونة. وقال «ذو الرجل الرخوة» محذراً:

- يجب احضار البنزين، ايها الفتيان، للمحرك. وقام «الاستاذ» (كان قد كسب ثلاث جولات من جواو غراندي) بجمع نقود من رفاقه لشراء ليترين من البنزين:

- سأحضر البنزين.

ولكن في فترة بعد ظهر يوم الاحد جاء الأب جوزيه بيدرو، الذي كان من الاشخاص النادرين جداً الذين يعلمون أين هو الملجأ الاكثر دواماً لـ «فرسان الرمال». وقد ارتبط الاب جوزيه بيدرو معهم بعرى الصداقة منذ زمن طويل. وهذه

الصداقة نشأت بواسطة «الشارب اللطيف»، أحد صبيان العصابة. وكان هذا الاخير، قد تسلل يوماً، بعد القداس، إلى موهف[١٣] (سكرستيا) احدى الكنائس حيث كان الاب جوزيه بيدرو يقوم بالخدمة المقدسة. وكان «الشارب اللطيف» قد دخل إلى هناك لمجرد الفضول قبل أي شيء آخر. هذا الغلام لم يكن من الذين يهتمون كثيراً بشؤون الحياة والسعي إلى الرزق. كان يحب ترك الوقت يمضي، دون أن يكلف نفسه رهقاً. كان على الأخص، طفيلياً في الجماعة. وفي بعض الايام، حين يشاء هواه، كان يتسلل إلى احد المنازل، ويأخذ منه شيئاً ثميناً، أو ينشل ساعة شخص ما. ولم يكن يقوم أبداً، تقريباً بتسليم ما يسرق لمن اعتادوا اخفاء الاشياء المسروقة، بل كان يحصره، ويسلمه إلى بيدرو بالا، بمثابة اسهام منه في حياة الجماعة. وكان له اصدقاء كثيرون بين حمّالي الميناء، وفي مختلف منازل الفقراء في مدينة القش، وفي مواضع عديدة من ولاية باهيا. وكان يأكل على مائدة هذا، ثم على مائدة ذاك، من الناس وبصورة عامة. لم يكن يثير سأم احد. وكان يكتفي بالنساء اللواتي يزدن عن حاجة «القط». وكان يعرف، افضل من أي شخص آخر، المدينة وطرقاتها، والمواضع الاكثر اثارة للفضول، وأماكن الاحتفالات والاعياد، حيث يذهب ليتشرب ويرقص. وحين تمضي بعض الزمن لم يساهم فيه بشيء ثمين في التنظيم الاقتصادي للجماعة. كان يبذل جهداً وينصرف بحيث يحصل على شيء يعود بالنقود، ويسلمه إلى بيدرو بالا، لكنه، في الحقيقة، لم يكن يحب اي نوع من العمل، أشريفاً كان أو غير شريف. وما كان يحبه هو أن يتمدد على رمال الشاطىء، ساعات وساعات، يرصد السفن، والبقاء مقرفصاً فترات كاملة لما بعد الظهر على أبواب حوانيت البقالة، مصغياً إلى قصص البسالة التي يرويها عمال أو صيادون. كان يرتدي الاسمال الرثة، ذلك لأنه لم يكن يغير ملابسه الا حين تسقط خرقاً ممزقة. كان يحب التسكع في طرقات المدينة، أزقتها وشوارعها، داخلاً إلى بعض الحدائق لتدخين سيجارة، أو إلى احدى الكنائس ليتأمل باعجاب جمال الذهب العتيق، متشرداً عبر الطرقات المبلطة بحجارة كبيرة سوداء.

في ذلك الصباح، حين رأى الناس خارجين من القداس، دخل إلى الكنيسة دون سرور. رسم طريقه نحو الموهف (السكرستيا) وراح يتفحص كل شيء، المذابح، والقديسين، ووقف يسخر من صورة تمثل القديس منوا، الشديد السواد. لم يكن يوجد

(١٣) موهف (سكرستيا). مكان موضع فيه زينات الكنيسة، وحيث يرتدي الكهنة ملابسهم الكهنوتية - ملاحظة من المترجم -

أحد في الموقف، ورأى حلية ذهبية يمكن أن تدر نقوداً كثيرة. وألقى نظرة اخيرة حوله، فلم ير أحداً. مد يده لكن شخصاً لمس كتفه، كان الاب بيدرو قد دخل:

- لماذا تفعل هذا يا ولدي؟ هكذا سأله الخوري باسماً، في حين كان يسحب من يد «الشارب اللطيف» الذخيرة الذهبية.

- كنت انظر اليها فقط، يا ابتِ. انها مزيفة... هكذا أجاب «الشارب اللطيف» محساً ببعض الخوف. وأردف: نعم، انها مزيفة تماماً... لكن لا تظن انني كنت سأسرقها بل كنت سأتركها هنا. هكذا، كما هي. إنني من عائلة محترمة.

القى الاب جوزيه بيدرو نظرة سريعة على اسمال «الشارب اللطيف» وأغرق بالضحك. ونظر «الشارب اللطيف» هو أيضاً إلى ثيابه الرثة.

- هذا لأن والدي قد توفي، في الحقيقة. لكنني كنت أدرس في كلية... أنا أقول الصحيح. ولماذا أسرق هذه الحلية؟

وأشار إلى الذخيرة الذهبية وأضاف:

- ولي كنيسة أيضاً أنا لست وثنياً.

ابتسم الأب جوزيه بيدرو مجدداً كان يعرف تماماً أن «الشارب اللطيف» يكذب. منذ زمن طويل كان الخوري ينتظر فرصة تمكنه من الاتصال بالاولاد المشردين في المدينة. كان يعتقد أن الرسالة المناطة به هي هذه: مساعدة الأولاد المشردين. وكان قبلاً قد زار مراراً دور الاصلاحيات، لكن المسؤولين عن تلك الدور كانوا يضعون امامه عقبات وحواجز من كل نوع، لأنه لم يكن يوافق على رأي المدير القائل إن أفضل وسيلة لاصلاح ولد ارتكب ذنباً هي ضربه بلا هوادة. ومنذ زمن طويل كان الأب جوزيه بيدرو يسمع الاحاديث عن «فرسان الرمال» ويحلم بالاتصال بهم. وبأن يتمكن من هدي جميع هذه القلوب إلى الله. كانت لديه رغبة شديدة جداً بالعمل مع هؤلاء الأولاد، ومساعدتهم على أن يكونوا أخياراً لذلك، عامل «الشارب اللطيف» بأفضل ما استطاع ومن يدري. فربما بواسطة هذا الغلام سيصل إلى «فرسان الرمال»؟ وهكذا كان.

في الاكليروس، لم يكونوا يعتبرون الاب جوزيه بيدرو كبير الذكاء. بل لقد كان احد اكثر مجموعة كهنة باهيا تواضعاً. وفي الواقع، فقبل أن يدخل إلى المدرسة الاكليركية، كان الأب جوزيه عاملاً، لمدة خمس سنوات، في مصنع اقمشة. وقد قرر مدير المصنع، في أحد الايام، عند زيارة المطران لهذا المصنع، أن يقدم دليلاً على

سخاء نفسه فأعلن بأنه «نظراً لأن سيدنا المونسنيور يشكو من قلة الدعوات[١٤] الربانية، فإنه أي صاحب المصنع، مستعد لأن يدفع نفقات تعليم طالب في مدرسة اكليركية، أو نفقات طالب آخر يريد أن يدرس ليصبح كاهناً». عندئذ، اقترب جوزيه بيدرو، وكان يعمل على النول، وقال إنه يريد أن يصبح كاهناً. كانت هذه مفاجأة لرب العمل وللمطران على حد سواء. إن جوزيه بيدرو لم يعد شاباً، ولم تكن لديه أية ثقافة. لكن رب العمل، لم يكن يريد، امام المطران، أن يسحب كلامه. وذهب جوزيه بيدرو إلى المدرسة الاكليركية وجعل تلامذتها يسخرون منه، ولم ينجح أبداً في أن يكون تلميذاً مجتهداً. كان سلوكه جيداً، بالتأكيد، ومن أتقى التلامذة، ومن الذين يرتادون الكنيسة اكثر من سواهم. ولم يكن يوافق على كثير من الامور التي تحصل في الدير، ولأجل هذا كان التلامذة يضطهدونه ولم يكن باستطاعته فهم اسرار الفلسفة، واللاهوت، واللغة اللاتينية. لكنه كان ورعاً تقياً، وكان يرغب في تعليم مبادىء الدين للاولاد وللهنود الحمر. وقد عانى كثيراً من الآلام والعذاب، وعلى الاخص حين توقف صاحب المصنع، بعد سنتين، عن دفع نفقات دراسة جوزيه بيدرو، فاضطر هذا الاخير ليعمل خادماً في الدير لكي يستطيع الاستمرار. لكنه استطاع أن يسام كاهناً فجرى الحاقه باحدى كنائس العاصمة في انتظار الخورنية (قرية يخدمها كاهن) ومع كل ذلك، فقد كانت رغبته الكبرى هي أن يعلم الأولاد المشردين في المدينة مبادىء الدين، هؤلاء الصبيان الذين كانوا بلا أب، ولا أم، ولا منزل ويعيشون على السرقة، معرضين لجميع الآثام والآفات. كان الأب جوزيه بيدرو يريد أن يهدي جميع هذه القلوب إلى الله. وهكذا راح يرتاد دور الاصلاحيات، حيث استقبله المدير، بادىء بدء بلطف كبير. ولكن حين اعلن الكاهن أنه ضد العقوبات الجسدية، وضد عملية ترك الأولاد فريسة للجوع طوال أيام، حينئذ تغير الوضع، وسارت الأمور بطريقة أخرى وفي هذا الصدد، اضطر الكاهن في أحد الأيام لكتابة رسالة إلى هيئة تحرير احدى الصحف. ومنذ ذلك الحين، مُنِع (بضم الميم وكسر النون) الأب جوزيه من دخول دار الاصلاحية، بل وقد جرى توجيه شكوى ضده إلى مقر الابرشية. وبسبب كل هذا، لم يتمكن من أن يكون له رعايا مباشرون. بيد أنه كان يحس برغبة شديدة وكبيرة في التعرف إلى «فرسان الرمال»، إن مشكلة الأولاد

(١٤) الدعوة الرهبانية Vocation أو الارشاد الرباني، وهو نداء باطني (شعور الانسان بأنه مدعو للقيام بعمل اجتماعي أو ديني خاصة). - ملاحظة من المترجم -

القاصرين والجائعين، التي لم تكن تهم أحداً تقريباً في المدينة، كانت اكبر هموم الاب جوزيه بيدرو. كان يريد مقاربة هؤلاء الأولاد، ليس فقط لهديهم إلى الله ولكن أيضاً لكي يرى ما اذا كان ثمة وسيلة ما، لتحسين حياتهم. كان ينقص الأب جوزيه بيدرو صغيراً بل لم يكن لديه أي تأثير ولم يكن يعرف أيضاً ماذا يفعل لكسب ثقة هؤلاء اللصوص الصغار. لكنه كان يعلم أن حياتهم فاقدة لأي رفاه، ولأي حنان: حياة جائعة ومتشردة. وإذا كان الأب جوزيه ليس لديه سرير ولا طعام ولا ملابس يقدمها لهم، فقد كان لديه على الأقل كلمات عطف، وبالتأكيد كثير من الحب في قلبه يعطيهم اياه. وفي البدء، أخطأ الأب بيدرو في نقطة وهي اعطاؤهم، مقابل التخلي عن الحرية التي يتمتعون بها. وهم متروكون في الشارع، امكانية حياة اكثر راحة ورفاهاً. كان الأب جوزيه بيدرو يعلم جيداً أنه لا يستطيع توجيه هؤلاء الأولاد نحو دار الاصلاحية. فقد كان يعرف جيداً جداً قوانين دار الاصلاحية، القوانين المكتوبة والأخرى التي يجري تطبيقها. وكان يعلم جيداً أنه لم يكن هنالك أي امكان لولد دخل الاصلاحية لأن يصبح طيباً وشغيلاً. لكن الكاهن كان يعتمد على بعض صديقاته. وهن نسوة تقيات، بل مترمتات، وكريمات النفوس. كان في استطاعتهن كفالة عدة أولاد من «فرسان الرمال»، في تربيتهم واطعامهم. لكن هذا الحل كان يعني أن يتخلى هؤلاء الصبيان عن كل ما شكل عصمة حياتهم. مغامرة الحرية في شوارع اكثر مدن العالم اسراراً وأجملها: في شوارع باهيا جميع القديسين. ومنذ أن اقام الأب جوزيه بيدرو بواسطة «الشارب اللطيف» علاقات مع «فرسان الرمال»، أحس بأنه لو عرض عليهم ذلك الاقتراح، فسوف يفقد كل الثقة التي وضعوها فيه، وأنهم سيغيرون مقرهم. وأنه لن يراهم أبداً بعد ذلك الحين. والحقيقة، أنه لم تكن لديه هو أيضاً ثقة مطلقة في هذه العوانس المسنات المتيبسات اللواتي كن يقضين حياتهن مندسين في الكنيسة واللواتي يغتمن فرصات ما بين القداديس لكي يخضن في الحديث عن حياة الآخرين. وهو يذكر أنه في البدء جرح مشاعرهن حين اقتربت منه، اثر انتهاء أول قداس اقامه في هذه الكنيسة، مجموعة من التقيات المترمتات، كان واضحاً انهن يردن مساعدته في خلع ثياب خدمة القداس. ورنّت حوله صيحات تعجب حنون

- أيها المحترم الصغير. أيها الملاك جبريل...

واقتربت منه عجوز، نحيمة جداً، وشبكت يديها كما عند العادة وقالت:

- يا صغيري يسوع المسيح المعبود

كان يبدو انهن يصلين له، بل يعبدنه، فثار الأب جوزيه بيدرو. وفي الحقيقة،

كان يعلم أن أغلب الكهنة، لم يكونوا يرفضون هذه العناية بهم. بل كانوا يحصلون على هدايا كبيرة من الفراريج والديوك الهندية، والمناديل المطرزة، بل وأحياناً ساعات ذهبية يتوارثها عبر الأجيال اولاد عائلة معينها. لكن الأب جوزيه بيدرو كانت لديه فكرة أخرى عن مهمته، كان يرى أن الآخرين مخطئون. واستولى عليه غضب شديد وقال لهن

- يا سيداتي، أليس لديكن شيء آخر تفعلنه؟ أليس لديكن منزل تعتنين به؟ انني لست يسوعكم المسيح المعبود، ولا الملاك جبريل... عدن للعمل في منازلكن، أعددن الطعام، وخيطن.

كانت ضفادع جرن الماء المقدس ينظرن إليه، مذهولات، فكأنه كان المسيح الدجال شخصياً. وانهى الكاهن كلامه قائلاً:

- يمكن بعضكن في منازلكن، سوف تخدمن سيدنا وإلاهنا بصورة أفضل من تشممكن هنا رائحة ثوبنا. اذهبن... اذهبن..

وفي حين كن يخرجن مرعوبات، كان يردد قائلاً بمرارة أكثر من الغضب.

- يا يسوعي المسيح المعبود. اسم الآله عبثاً...

ذهبت النسوة التقيات في خط مستقيم إلى عند الأب كلوفيس، الذي كان بديناً، وأصلع، وذا مزاج مرح: كان هو معرّف هاته السيدات. وروين له وسط صيحات تعجب واندهاش، ما حدث لهن. تأمل الأب كلوفيس التقيات العجائز بعين حنون وعزاهن قائلاً.

- هذا الأمر سوف ينتهي. الأب بيدرو جاء منذ فترة قريبة فقط، فيما بعد، سوف يرى أية نساء قديسات أنتن، فأنتن بنات الرب الحقيقيات سوف تمر الصعوبة. اذهبن ورتلن «الأبانا» ولا تنسين أن هذا اليوم هو يوم التبريك

استغرق الأب كلوفيس في الضحك بعد أن ذهبن. وهمس في دخيلته: هؤلاء الكهنة الحديثو العهد، الطارحون، يكدرون حياة الناس..

وفيما بعد، أخذت النسوة التقيات يمشين مقتربات أكثر فأكثر من الأب جوزيه بيدرو، وفي الحقيقة. فهن لم يصلن معه أبداً إلى صلة حميمة تماماً. إن هيئته المهيبة، وطيبته التي كانت تكرس للظروف التي تكون فيها ضرورية، وبغضه للدسائس الكهنوتية الصغيرة، كانت تدفعهن إلى أن يحترمنه أكثر مما يحببنه. بيد أن اواصر الصداقة تعززت بينه وبعض النسوة، وهن بصورة عامة أرامل، أو زوجات لرجال أردياء. وكان سبب آخر يباعد بينه وبين التقيات المترمتات. وهو أنه كان نقيضاً

للواعظ المبتدئ. فهو لم ينجح أبداً في وصف الجحيم بقوة الاقناع التي كان يملكها الأب كلوفيس، مثلاً كانت بلاغة الأب بيدرو فقيرة، وفاشلة في كثير من الأحيان. لكنه كان لديه الايمان لقد كان مؤمناً. ومن جهة أخرى، كان من الصعب التأكيد بأن الأب كلوفيس يؤمن بالجحيم على الاقل.

في البدء، فكر الأب جوزيه بيدرو بتسليم « فرسان الرمال » إلى النسوة التقيات. وكان يعتقد بذلك أنه ليس فقط سينقذ الأولاد من حياة بائسة، بل أنه سوف ينقذ التقيات المتزمتات من حياتهن غير المجدية، بصورة ضارة. كان في وسعه الحصول على أن يكرس انفسهن للأولاد بنفس التقى الحار اللواتي يكرسن به أنفسهن للكنائس، وللكهنة ذوي البدانة. وكان الأب جوزيه بيدرو يجزم (اكثر مما كان يعلم) بأنهن اذا كن يقضين حيواتهن في أحاديث تافهة في الكنائس، أو في تطريز مناديل للأب كلوفيس. فذلك لأن هاته العوانس المسنات لم يكن لهن ولد، أو زوج يكرسن له وقتهن وحنانهن. إنه الآن سيأتيهن بأبناء. ظلت هذه الفكرة تراود الأب جوزيه بيدرو زمناً طويلاً بل حدث أنه اصطحب اليهن ولداً كان قد فر من دار الاصلاحية، وذلك قبل زمن طويل من تعرف الأب إلى « فرسان الرمال »، حين كان يسمع القليل عنهم. وأدت التجربة إلى نتائج سيئة: لقد فر الغلام من منزل العانس المسنة، آخذاً معه عدة قطع من الفضيات، مفضلاً على الملابس الجميلة والغداء المضمون ـ مع واجب تلاوة التسبيح بصوت عال، وحضور مختلف القداديس وصلوات التبريك اليومية ـ حرية الشارع، حتى وهو يلبس الاسمال البالية، وحتى دون أن يكون متأكداً من الحصول على غداء. وفيما بعد، فهم الأب جوزيه بيدرو أن التجربة قد اخفقت بخطأ العانس المسنة أكثر منها بخطأ الولد. ذلك، طبعاً، كما كان يرى الأب جوزيه بيدرو، لأن من المستحيل تحويل ولد متشرد وسارق إلى تندلفت لكن من الممكن جداً تحويله إلى رجل شغيل .. وكان يأمل بأنه حين سيتعرف إلى « فرسان الرمال » سيحقق اتفاقاً بين بعضهم والنسوة التقيات، لمحاولة القيام بتجربة جديدة، تكون هذه المرة موجهة جيداً. ولكن ما أن قدمه الغلام « الشارب اللطيف » إلى المجموعة، وحين كسب شيئاً فشيئاً ثقة القسم الاكبر منهم، رأى أن من غير المجدي كلياً أن يراوده هذا المشروع لقد أدرك أن هذا المشروع عبثي، لأن حب الحرية كان الشعور الاكثر تجذراً في قلوب « فرسان الرمال »، وأنه ينبغي استعمال وسائل اخرى.

في الآونة الأولى، كان الاولاد ينظرون اليه بحذر وريبة. ومراراً عديدة في الشارع، كانوا يسمعون أن الخوري يأتي بالنحس وسوء الحظ، وأن التعامل مع الكهنة

هو جيد فقط للنساء، لكن الأب جوزيه بيدرو كان عاقلاً، ويعرف كيف يعامل الأولاد. كان يعاملهم كرجال، وكأصدقاء. وهكذا كسب ثقتهم، وأصبح صديق الجميع، حتى أولئك الذين، مثل بيدرو بالا و « الاستاذ »، لم يكونوا يحبون الصلاة. ولم يلاق صعوبة كبيرة إلا مع « ذي الرجل الرخوة ». وفي حين كان « الاستاذ » وبيدرو بالا، و « القط » لا يبدون اهتماماً بأقوال الكاهن (ومع ذلك، كان « الاستاذ » يحبه كثيراً لأنه كان يحضر له كتباً) فإن « سكر الشعير » و « ذا الكوع الناشف » وجواو غراندي، وعلى الاخص الأول، كانوا يهتمون كثيراً بما كان يقوله، فإن « ذا الرجل الرخوة » من جهته كان يبدي عداء عنيداً جداً في البدء، إلا أن الخوري جوزيه بيدرو انتهى به الأمر إلى كسب ثقة الجميع وهو قد اكتشف على الاقل، في « سكر الشعير » دعوة رهبانية، واستعداداً ليكون اكليركياً.

ولكن في فترة بعد الظهر هذه، نظر الغلمان بدون ارتياح كبير إلى مجيء الأب جوزيه بيدرو. اقترب منه « سكر الشعير » وقبل يده، وكذلك فعل « ذو الكوع الناشف » وحياه الآخرون وأوضح الكاهن سبب مجيئه:

ـ لقد احضرت دعوة لكم جميعاً

أرهفت الآذان للسمع ودمدم « ذو الرجل الرخوة » قائلاً:

ـ سوف يأخذ للتفقد أود تماماً أن ارى من الذي سوف يستجيب له ..

لكنه لزم الصمت، لأن بيدرو بالا كان ينظر اليه بغضب وابتسم الكاهن ابتسامة طيبة. وجلس على صندوق. ورأى جواو غراندي أن جبة الخوري كانت قذرة وعتيقة وكانت مرقعة بخرق كبيرة بالخيط الأسود وكانت واسعة جداً بالنسبة لنحافة الكاهن ولكن بكوعه بيدرو بالا الذي نظر هو أيضاً إلى الجبة. حينئذ قال بالا:

ـ ايها الفتيان، إن لدى الأب جوزيه بيدرو الذي هو صديقنا ما يقوله لكم، عاش الأب جوزيه بيدرو!

كان جواو غراندي يعرف أن هذا كله ناتج عن الجبة الممزقة والكبيرة جداً بالنسبة لنحول الكاهن. وأجاب الآخرون بـ « مرحى »!. ابتسم الكاهن، مشيراً بيده ولم يكن جواو غراندي يحول عينيه عن الجبة. وقد رأى أن بيدرو بالا كان زعيماً حقاً، يعرف كل شيء. ويحسن أن يفعل كل شيء. ومن أجل بيدرو بالا، كان جواو غراندي مستعداً لأن يقطع جسمه مزقاً، مثل ذلك الزنجي ايلاهوس من أجل باربوزا، سيد القرصان ودس الأب جوزيه بيدرو يده في جيب جبته وأخرج كتاب الصلوات الأسود. وفتحه، وأخرج من داخله بضع بطاقات ذات العشرة آلاف ريس كل منها:

ـ هذا ، لأجل أن تذهبوا جميعاً إلى مضمار الخيول الخشبية الملونة ، اليوم ، في ساحة ايتاباجيب .

كان ينتظر أن تتهلل الوجوه أكثر ، وأن يسود فرح هائل القاعة كلها . ذلك لأنه على هذا النحو سوف يكون اكثر اقتناعاً بأنه عمل بمشيئة الله حين أخذ من الخمسمئة كريزيروس التي اعطته اياها دونا غيلهرمين سيلما لشراء شموع لمذبح العذراء ، خمسين كريزيروس لاصطحاب « فرسان الرمال » إلى مضمار الخيول الخشبية . ونظراً لأن وجوههم لم تبتهج فجأة ، أحس بالحيرة . والأوراق المالية في يده . وهو ينظر إلى الصبيان الصغار . وحك بيدرو بالا شعره (المسترسل على أذنيه) ، وأراد أن يتكلم ، ولم يستطع . فنظر حينئذ إلى « الاستاذ » . وكان هذا الذي أوضح :

ـ يا ابتي ، أنت رجل طيب . كان يريد أيضاً أن يقول إن الأب هو طيب مثل جواو غراندي ، لكنه حسب أنه ربما احس الكاهن بالاستياء لمقارنته بزنجي لكن ما يحدث هو أن « ذا الرجل الرخوة » و « ذا الكوع الناشف » يعملان كلاهما في المضمار وكانوا مدعوين جميعاً ـ هنا هدأ « الاستاذ » برهة ـ من قبل صاحب المضمار الذي هو صديقهم ، للركوب مجاناً هذه الليلة . ونحن لا ننسى لك دعوتك .

كان « الاستاذ » يتكلم برصانة ، منتقياً كلماته ، معتقداً أن اللحظة حساسة . حاذراً أشياء كثيرة . وكان بيدرو بالا يوافقه بايماءة من رأسه .

ـ سيكون ذلك لمرة أخرى . لكنك لن تغضب لأننا لم نقبل الدعوة . لن تغضب ، أليس كذلك ؟

وراح ينظر إلى الكاهن الذي عاود وجهه الفرح .

ـ كلا ، لن أغضب . وستكون دعوتي لكم في مرة أخرى .

ونظر إلى الأولاد باسماً

ـ بل سيكون الأمر أفضل هكذا . لأن النقود التي .

وصمت بغتة امام ما كان سيفعل . واعتقد أنه ربما كان هذا عبرة من الله وتنبيهاً . رأى أنه ، أي الكاهن قد ارتكب عملاً سيئاً . وكانت نظرته من الغرابة بحيث أن الأولاد اقتربوا منه خطوة .

كانوا ينظرون إلى الكاهن دون أن يفهموا . وزوى بيدرو بالا ما بين حاجبيه كما لو أن عليه حل مسألة . وحاول « الاستاذ » أن يتكلم . لكن جواو غراندي فهم كل شيء ، رغم أنه كان أقل ذكاء من الجميع

ـ هل كان هذا مال الكنيسة يا ابت ؟

وعض شفتيه ، غاضباً من نفسه

لقد فهم الباقون . واعتقد « سكر الشعير » أن هذه كانت خطيئة كبيرة ، لكنه احس بأن طيبة الأب تتخطى الخطيئة . وحينئذ جاء « ذو الرجل الرخوة » وهو يعرج اكثر من العادة ، كأنه قادم وهو يصارع ذاته ، ووصل إلى قرب الكاهن ، وكان يصرخ تقريباً في البدء ، مع أنه خفض صوته كثيراً اثر ذلك .

ـ نحن نستطيع اعادة النقود إلى حيث كانت . لا عليك ، فلا تهتم .

وابتسم الغلام .

إن ابتسامة « ذي الرجل الرخوة » والمودة التي كان الكاهن يقرأها في عيون الجميع (أليست هذه دموعاً ، تلك التي يراها في عيني غراندي) ؟ قد اعادتا اليه الهدوء ، وصفاء النفس ، والثقة بقدرته و بالله . وأجاب بصوته الطبيعي :

ـ إن أرملة مسنة ، قد اعطتني خمسمئة كروزيروس لشراء شموع . وأخذت خمسين كروزيروساً منها لكي تركبوا بها خيول المضمار الخشبية . وسيحكم الله ما اذا كنت قد احسنت العمل . والآن سوف اشتري شموعاً بالمبلغ كله .

كان بيدرو بالا يحس بأن عليه ديناً يؤديه نحو الكاهن . كان يريد أن يعرف الأب ان الجميع يفهمونه . وإذ لم ير أية وسيلة ، غير هذه ، فقد استعد للتخلي عن العمل الذي كان ممكن أن ينسح خلال فترة بعد ظهر ذلك اليوم ، ودعا الأب :

ـ سنذهب إلى المضمار لرؤية « ذي الكوع الناشف » و « ذي الرجل الرخوة » ، الآن في فترة بعد الظهر . فهل تريد أن تأتي معنا يا ابت ؟

وافق الأب جوزيه بيدرو ، لأنه كان يعلم بأن هذا يشكل خطوة إلى الامام في علاقته الخفية مع « فرسان الرمال » . وهكذا ذهبت جماعة مع الكاهن إلى الساحة . وامتنع العديدون عن الذهاب ، بمن فيهم « القط » الذي ذهب لزيارة « دالفا » . لكن الذين ذهبوا إلى المضمار ، كانوا يبدون مثل فريق من الأولاد الصغار الطيبين العائدين من درس قواعد الدين . ولو كانت ثيابهم جيدة ونظيفة ، لكان المرء يحسبهم تلامذة مدرسة دينية ، لفرط الترتيب الذي كان يلف صفهم .

في الساحة ، داروا مع الكاهن يتفرجون على كل شيء . وأشاروا باعتزاز إلى « ذي الكوع الناشف » الذي كان يحاكي اصوات الحيوانات ، وإلى « ذي الرجل الرخوة » الذي كان يدير مضمار الخيول الخشبية وحده . لأن نهوزنهو كان قد ذهب لاحتساء الشراب في احدى الحانات . ولسوء الحظ أنه لم تكن الاضواء مشعلة في فترة بعد الظهر ! لم يكن ذلك جميلاً كما هي الحال في الليل حين تدور الاضواء بألقاتها المشعة المتعددة الألوان ! لكنهم كانوا معتزين بـ « ذي الكوع الناشف » ، الذي يحاكي أصوات

الحيوانات، و «ذي الرجل الرخوة» الذي كان يدير مضمار الخيول الخشبية، ويقوم باصعاد الأولاد إلى صهوات الخيول، ثم ينزلهم عند انتهاء دورهم.

وقام «الاستاذ» بقلم صغير، وغطاء علبة، برسم «ذي الكوع الناشف» في بذلة قرصان Flibustier. كانت لدى «الاستاذ» موهبة خاصة في الرسم، وأحياناً كان يكسب نقوداً برسمه على الرصيف أشخاصاً يمرون، وفتيات صبايا أثناء مرورهن مع خاطبيهن. وكان هؤلاء يتوقفون لحظة، ويمتعون النظر بالرسوم غير المحددة بعد، ويقولون:

- هذا رسم مشابه جداً...

وكان «الاستاذ» يلتقط القروش ويستمر حينئذ في روتشة الرسم المخطط بالطبشور، وتوسيعه، وتصوير المارة من الرجال والنساء المتدللات، إلى أن يطرده الشرطي من الجادة. وأحياناً، كان المارة يتجمعون قرب الرسام، متأملين في رسومه، وكان بعضهم يقولون.

- هذا الولد ذو موهبة واعدة وخسارة أن لا تهتم الحكومة بهذه المواهب.

وكانوا يتحدثون عن حالات أولاد من الشارع، مدت لهم بعض العائلات يد المساعدة. فأصبحوا شعراء كباراً، ومغنين، ورسامين

انهى «الاستاذ» رسمه (التي ادرج فيه مضمار الخيول الخشبية، ونهوزيهو فرانسا السكران حتى الانطفاء) وأعطاه للكاهن. وكانوا قد شكلوا جمعاً فريقاً كثيفاً، وراحوا يبصرون إلى الرسم الذي كان الكاهن يمتدحه، حين سمعوا.

- ولكن هذا هو الأب جوزيه بيدرو ..

وسددت العانس المسنة نظارتها المفردة نحو الجماعة مثل سلاح حربي ولبث الأب جوزيه بيدرو شبه مرتبك، وكان الأولاد ينظرون بفضول إلى عظام رقبة العجوز وصدرها، حيث كانت حلية ثمينة تتلألأ في ضوء الشمس. وكانت لحظة لبث الجميع فيها صامتين. إلى أن استعاد الأب جوزيه بيدرو شجاعته، وقال.

- مساء الخير، أيتها السيدة مرغريت.

لكن الارملة مرغريت سانتوس سددت نظارتها الذهبية المفردة، محدداً.

- ألست تخجل لكونك في هذا المكان، يا ابت؟ ألست كاهناً للرب؟ رجل في مثل مسؤوليتك وسط هؤلاء الاوباش

- إنهم أطفال يا سيدتي ..

حدجته العجوز بنظرة متعالية. ورسم فمها تعبير ازدراء. وأردف الأب قائلاً.

- لقد قال المسيح «دعو الاطفال يأتون إليَّ..»

- أطفال.. أطفال. وبصقت العجوز

- لقد قال الرب شقي هو الذي يسيء إلى طفل.

ورفع الأب جوزيه بيدرو صوته فوق ازدراء العجوز. وقالت هذه.

هؤلاء ليسوا أطفالاً، إنهم لصوص أنذال، لصوص. هؤلاء ليسوا أطفالاً بل يمكن أن يكونوا من أفراد «فرسان الرمال».. ورددت قولها هذا بازدراء

راح الأولاد ينظرون إليها في فضول. كان «ذو الرجل الرخوة» العائد من المضمار، مضطراً لأن نهوزيهو فرانسا كان قد عاد، ينظر إلى العجوز بغضب. وخطا بيدرو بالا خطوة إلى الأمام، وأراد أن يوضح...

- لقد أراد الأب فقط أن يسا...

- لا تقترب مني. لا تقترب مني، يا قذارة! ولولا الأب، لاستدعيت شرطياً.

وأطلق بيدرو بالا ضحكة فاضحة، حين فكر بأنه لولا وجود الخوري، لكانت العجوز قد فقدت الحلية الذهبية وحتى النظارة بالذات. وابتعدت العجوز بهيئة استعلاء كبير، بعد أن قالت للأب.

- على هذا النحو، لن تذهب بعيداً. يا أبت، انتبه أكثر لعلاقاتك.

كان بيدرو بالا يضحك بصورة اشد، كل مرة، والكاهن هو أيضاً استغرق في الضحك، وإن كان قد أحس بالألم من أجل العجوز، لعدم تفهمها لكن مضمار الخيول الخشبية كان يدور، محملاً بأولاد بملابس جيدة، وشيئاً فشيئاً استدارت عيون «فرسان الرمال» نحو المضمار، وامتلأت برغبة امتطاء الخيول الخشبية، والدوران مع الأضواء

وفكر الأب: انهم أطفال، نعم.

في بدء الليلة، هطل عارض من المطر لكن الغيوم تلاشت بسرعة من السماء، وتلألأت النجوم، وتألق البدر وبعد الفجر، وصل «فرسان الرمال». وسيّر «ذو الرجل الرخوة» المحرك، ونسوا أنهم لا يشبهون الأولاد الآخرين، ونسوا أنهم ليس لهم أب ولا أم ولا منزل وأنهم يعيشون من السرقة، كرجال، وأن المدينة تخشى بأسهم كلصوص ونسوا أقوال العجوز ذات النظارة المفردة نسوا كل شيء، وأصبحوا مشابهين لجميع الأولاد، ممتطين خيول المضمار الخشبية. دائرين مع الأضواء. كانت النجوم تتلألأ، ويتألق القمر البدر. ولكن فوق كل شيء كانت تتلألأ في ليل باهيا، هذا، الأضواء الزرقاء والخضراء، والحمراء، لمضمار الخيول الخشبية الياباني

* * *

عمال الموانيء

ألقى بيدرو بالا قطعة نقود من أربعمئة ريس نحو جدار الجمرك، فسقطت قرب قطعة «الشارب اللطيف». وإثر ذلك، ألقى «سكر الشعير» قطعته، فاستقرت القطعة قرب قطعتي بيدرو بالا و «الشارب اللطيف». وكان هذا مقرفصاً، يترقب. ونزع السيجارة من فمه

ـ هذا ما يروق لي. البدء بصورة سيئة.

وتابعوا اللعبة، لكن «الشارب اللطيف»، و «سكر الشعير» خسرا قطعتي الأربعمئة «ريس» اللتين وضعها بيدرو بالا في جيبه قائلاً:

ـ أنا شخص محظوظ كما يبدو.

أمامهم كانت ترسو زوارق الشحن. وكان رجال ونساء يخرجون من السوق. كانوا ينتظرون لفترة بعد الظهر هذه زورق «حبيب الله الطيب». وكان المصارع ـ الراقص، ومهنته صياد سمك يعمل في أحد المصائد. وتابعوا لعبتهم بالنقود حتى «نظف» بيدرو بالا اللاعبين الآخرين من النقود. كانت البدبة على وجهه تلتمع. كان يجب أن يكسب على هذا النحو في لعبة نزيهة، لا سيما حين يكون شركاء اللعب بقوة «سكر الشعير» (الذي كان زمناً طويلاً بطل الجماعة، وبقوة «الشارب اللطيف». وحين انتهوا، قلب «الشارب اللطيف» جيوبه.

ـ سوف تقرضني، ولو قرشاً واحداً. اذ لم يبق لدي فلس واحد...

إثر ذلك، تطلع نحو البحر، والقوارب في المرسى:

ـ إن «حبيب الله الطيب» سوف يبحر في فترة بعد الظهر. هل سنذهب نحو حوض المياه؟

أجاب «سكر الشعير» بأنه سينتظر «حبيب الله الطيب» لكن بيدرو بالا ذهب مع «الشارب اللطيف» نحو حوض المياه. واجتازا شوارع الميناء، وغرسا أقدامهما في الرمل. وكانت نسمة تهب من العنبر الخامس، وسيل من الناس يروحون ويجيئون. وسأل بيدرو بالا «الشارب اللطيف»:

ـ ألا ترغب في أن تكون بحاراً؟

ـ كما ترى... إنني مرتاح هنا. كلا، لا أريد أن أبحر.

ـ أما أنا، فأريد ركوب البحر. جميل أن يتسلق المرء صارياً. والعاصفة، أليست جميلة؟ ألا تذكر تلك القصة التي قرأها لنا «الاستاذ»؟ والتي فيها عاصفة؟!

ـ أجل، انها قصة جميلة!

كان بيدرو بالا يتذكر القصة. و «الشارب اللطيف» كان يرى من الحماقة مغادرة باهيا. حيث سيكون من السهل جداً، حين يكبر، أن يعيش حياة سهلة لفلاح قاطع طريق (مالاندرو)، خنجره في سرواله، وقيثاره تحت ذراعه، وفتاة سمراء يمددها على الرمال. كانت هذه هي الحياة التي يتمناها حين يبلغ سن الرجال.

وصلا الى بوابة العنبر رقم ٧. كان جان دادام. وهو عامل ميناء زنجي، متين البنية. ومناصر قديم للاضرابات، مرهوب الجانب ومحبوب من جميع الحارة، كان جالساً على صندوق. كان يدخن الغليون وعضلاته بارزة تحت القميص. وحين رأى الغلامين، حياهما

ـ انظروا! إنه الصديق «الشارب اللطيف»، والزعيم بيدرو بالا

كان يسمي بيدرو «الزعيم بيدرو» وكان يحب الكلام معه. وأفسح مكاناً على صندوقه لبيدرو بالا. وقرفص «الشارب اللطيف» تجاهه. وفي زاوية كانت زنجية مسنة تبيع ثمار البرتقال، وتربي حور الجند، وهي تلبس تنورة هندية، وقميصاً صغيراً يكشف عن نهديها الضخمين رغم سنها. وكان «الشارب اللطيف» يتفحص ثديي الزنجية، في حين كان يقشر برتقالة التقطها من الطبق:

ـ ما زالت لديك، مقدمة مسرح، مريحة، أليس كذلك يا خالة؟

ابتسمت الزنجية قائلة.

ـ أولاد اليوم هؤلاء لم يعودوا يحترمون الأشخاص الأكبر سناً منهم، أيها الزميل «جان دادام». أين رأينا قبل اليوم غلاماً بهذه السن، يتكلم عن النهدين مع عجوز مثلي؟

ـ لا تتظاهري بالتقاعد يا خالة. انك ما زلت تفعلينها بصورة جيدة.

ضحكت الزنجية من صميم قلبها، وقالت:

ـ لقد أفلت الذكاء، أيها «الشارب اللطيف». لقد تجاوزت تلك السن. اسأل هذا... وأشارت إلى جان دادام. لقد رأيته حين كان ولداً مثلك؛ لقد قاد الاضراب الأول. هنا. في حوض المياه. في ذلك الزمن لم يكن أحد، يا للشيطان، يعرف ماذا

يعني الاضراب. هل تذكر ايها الصديق؟

هز جان دادام رأسه، علامة الموافقة، وأغمض عينيه متذكراً الايام البعيدة. أيام الاضراب الأول، الذي قاده على أرصفة الميناء. كان هو من اقدم عمال المرفأ، رغم أنه لم يبد بعد طاعناً في السن.

وقال بيدرو بالا:

- الزنجي اذا ابيض شعره، يعيش ثلاثين عاماً مضروبة بثلاثة [15].

وكشفت الزنجية عن جرتها الصوفية البيضاء، وذلك بعد أن سحبت عنها المنديل الذي كان يحيط بشعرها، ومازحها «الشارب اللطيف» قائلاً:

- هذا يضعني هذا المنديل، آه اينتها الزنجية الملأى بالتصنع

وسألها جان دادام.

- هل تذكرين ريمون، أيتها الام لويزا؟

- «الاشقر» الذي قتل في الاضراب؟ وكيف لا؟ أجل، إنني اذكر! كان احد الذين يأتون كل يوم بعد الظهر، للتحادث قليلاً معي. كان يحب المزاح..

- لقد قتلوه هنا بالذات، في ذلك اليوم حين سحقت الخيالة العمال

ونظر إلى بيدرو بالا، وسأله.

- ألم تسمع الحديث عنه أبداً؟ أيها الزعيم؟

- كلا

- كنت أنت حينئذ في الرابعة من العمر. بعد ذلك، قضيت ست عاماً في منزل شخص بعد آخر. إلى أن هربت. وإثر ذلك، لم نسمع بأسائك إلا حين اصبحت زعيماً للفرسان الرمال. لكننا كنا نعلم أنك سوف تتمكن من تدبير شؤونك بنفسك. كم عمرك الآن؟

أخذ بيدرو يقوم بحسابات. وقاطعه جان دادام.

- إنك في الخامسة عشرة، أليس كذلك يا أماه؟

أجابت الزنجية بالايجاب. وتابع جان دادام كلامه:

- اليوم الذي تشاء، لك مكانك هنا، على أرصفة الميناء. هنا مكان للعمل، محجوز لك

(١٥) مثل شعري برازيلي

- ملاحظة من المترجم -

- لماذا؟ هكذا سأل «الشارب اللطيف»، الذي اقلقته نظرة بيدرو المذهولة:

- لأن ريمون هو أبوه، ولأنه مات هنا قتلاً، مناضلاً من أجلنا، وفي سبيل حقنا نحن. لقد كان رجلاً وأكثر. كان يساوي عشرة رجال من أولئك الذين نراهم اليوم هنا

- أهو ابي؟ هكذا سأل بيدرو بالا، الذي لم يسمع عن هذه القصص، سوى اشاعات غامضة

- نعم، هو أبوك. كان يلقب بـ «الاشقر»، وحين اندلع الاضراب، كان يلقي خطباً عليا، بحيث لا يمكن الاعتقاد أبداً أنه عامل ميناء، لقد أصيب برصاصة ولكن هناك مكان لك على أرصفة الميناء.

كان بيدرو بالا يمسح الاسفلت بحصاه. وتطلع إلى جان دادام

- لماذا لم تحدثني أبداً عن هذا الامر؟

- لقد كنت صغيراً بحيث لا تمكن أن تفهم. والآن لقد أصبحت أنت رجلاً. -

وضحك جان دادام بارتياح

ضحك بيدرو بالا هو أيضاً. لقد احس بالسعادة لمعرفة قصة أبيه، لأن هذا كان رجلاً شجاعاً. لكن الغلام بيدرو سأل في تمهل.

- وأمي، هل عرفتها؟

فكر جان دادام. برهة، ثم قال

- كلا، لست ادري. حين تعرفت إلى «الاشقر» لم يكن لديه زوجة. لكنك كنت تعيش معه.

- أما أنا فقد عرفتها.

كانت الزنجية هي التي تتكلم. وقالت. لقد كانت امرأة جميلة جداً (شقفة حلوة!) وراحت قصة بأن والدك قد اختطفها، وأنها كانت من اسرة غنية من الأعالي، هناك. وأشارت إلى المدينة العاليه. وقد ماتت وكنت أنت لم تتجاوز الشهر السادس من عمرك. في ذلك الحين، كان ريمون يعمل في معمل السجائر، في ايتاباجيب. بعد ذلك، جاء الى أرصفة الميناء.

وردد جان دادام، مرة أخرى

- حين تريد...

هز بيدرو بالا رأسه بالايجاب. ثم سأل

- كان ذلك عملية هائلة، الاضراب، أليس كذلك؟

وراحوا يصغون إلى جان دادام وهو يتكلم عن الأضراب. وحين انتهى، قال بيدرو بالا:

ـ أنا، أحب قيادة اضراب. سيكون هذا شيئاً ممتعاً.

ودخلت باخرة. فنهض جان دادام واقفاً:

ـ الآن سنقوم بشحن هذه السفينة الهولندية.

كانت السفينة تصفر أثناء مناورات الرسو. ومن جميع الزوايا كان يصل عمال موانىء يتجهون نحو العنبر الكبير. ونظر اليهم بيدرو بالا بحنان. كان أبوه واحداً منهم، وقد مات دفاعاً عنهم. كان يمر، هناك، رجال بيض، وخلاسيون، وزنوج، زنوج كثيرون. انهم سيملأون خزانات السفينة بأكياس الكاكاو، وشحنات من التبغ، والسكر، ومن جميع منتجات ولاية باهيا، هذه المنتجات التي سترحل إلى أوطان نائية، حيث سيقوم رجال مثلهم، وربما طوال القامات، وشقر، بتفريغ السفينة، تاركين خراماتها فارغة. لقد كان ابوه واحداً منهم. الآن، فقط، أصبح يعرف ذلك. ولأجلهم، ألقى خطباً، واقفاً فوق صندوق، لقد قاتل، وأصيب برصاصة حين هاجم الجنود الخيالة العمال المضربين. وربما كان دم أبيه قد سال هنا بالذات، حيث يجلس هو، بيدرو بالا. راح الغلام يحدق في الارض المكسوة الآن بالاسمنت. تحت هذا الاسمنت لا بد أن يكون الدم الذي سال من جسد ابيه. لأجل هذا، فإن مكانه ما زال محفوظاً على أرصفة الميناء، يشغله يوم يشاء، بين هؤلاء الرجال، المكان الذي كان لابيه. انها حياة شاقة، هذه الحياة مع شحنة ستين كيلوغراماً على الكتفين. لكنه على هذا النحو، سيكون بامكانه أن يقود اضراباً ـ مثل اضراب ابيه وجان دادام، وأن يقاتل الشرطة، وأن يموت من أجل حقوق الآخرين. وهكذا سينتقم لأبيه، ويساعد هؤلاء الرجال في النضال من أجل حقوقهم (كان بيدرو بالا لديه فكرة غامضة عن معنى هذا الامر) كان يتصور نفسه في اضراب، يقاتل. وكانت عيناه تبتسمان كما تبتسم شفتاه

وقاطع حلمه. «الشارب اللطيف» الذي كان يمتص البرتقالة الثالثة:

ـ هل تفكر في موت العجلة التي غدتك، ايها الاخ العجوز؟

نظرت الزنجية العجوز إلى بيدرو بالا بحنان.

ـ هذا رأس ابيه. إلا أن شعره مجعد، مثل شعر أمه. ولولا هذه الندبة على وجهه، لما احتجنا إلى صورة لرؤية ريمون، أبيه. انه رجل وسيم!

ضحك «الشارب اللطيف» بين اسنانه. وسأل كم يتوجب عليه ثمناً للبرتقال، ودفع

مثل رئيس. ثم نظر مجدداً إلى ثديي الزنجية وسأل:

ـ أليست لك ابنة، يا خالتي؟

ـ ولماذا تريد أن تعرف. ايها البائس؟

ضحك «الشارب اللطيف»:

ـ كان باستطاعتي أن اتدبر امري معها...

وقذفته الزنجية بفردة حذائها العتيق. وتجنب «الشارب اللطيف» الضربة.

ـ لو كان لي بنت، لما كانت لمنقارك، أيها التافه!

ثم تذكرت:

ـ ألن تذهب اليوم إلى الغانتوا (١٦)؟ سيكون احتفال عظيم. انه عيد أومولو.

ـ هل سيكون هناك طعام كثير؟ وشراب «الألوا» (١٧)؟

ـ سيكون منها الكثير

وتأملت في بيدرو بالا، ثم سألته:

ـ لماذا لا تذهب انت أيضاً، أيها الابيض؟ إن اومولو ليس فقط قديساً للزنوج. إنه قديس جميع الفقراء.

مدّ «الشارب اللطيف» يده باشارة تحية، حين تحدثت الزنجية عن أومولو، الاهة الجدري. كان المساء يهبط. واشترى رجل مربى جوز الهند. واضاءت الانوار بغتة، ونهضت الزنجية. وساعدها «الشارب اللطيف» على وضع طبقها على رأسها. وفي البعيد. ظهر «سكر الشعير» برفقة «حبيب الله الطيب». ونظر بيدرو بالا مرة أخرى إلى الرجال الذين كانوا، على أرصفة الميناء، يشحنون السلات على السفينة الهولندية. وعلى ظهور الزنوج والخلاسيين العريضة كانت تتلألأ قطرات العرق. وكانت الرقاب المُعَضَّلة (بتشديد الضاد وفتحها) تمضي محنية تحت الشحنات. وبكرات الروافع تدور محدثة ضجة شديدة. أن يكون يوماً في اضراب مثل أبيه. النضال والقتال من أجل الحق. في أحد الايام، عند باب الميناء، على الارصفة، سوف يستطيع رجل مثل جان دادام أن يروي قصته لأولاد آخرين. كما يروي الآن قصة أبيه. كانت عينا

(١٦) الغانتوا: أحد احياء باهيا.

ـ ملاحظة من المترجم ـ

(١٧) ألوا Aluá: مشروب باهياني، يصنع من الزنجبيل. وصنعه من اختصاص الزنوج.

ـ ملاحظة من المترجم ـ

بيدرر بالا تلتمعان بضوء قوي في الليل الذي ساد منذ قليل.

ساعدوا «حبيب الله الطيب» في تفريغ صيدة السمك، التي كانت جيدة. وقد ساعده بيانجا، واشترى صيدة الاسماك كلها رجل صاحب مسمكة في السوق. اثر ذلك، ذهبوا لتناول الطعام في رستوران قريب. وذهب «سكر الشعير» إلى الأب جوريه بيدرو الذي كان يعلمه القراءة والكتابة. وقبل ذلك، مر الغلام بالمستودع، ليأخذ منه علبة اقلام كان قد نشلها في الصباح، من احدى المكتبات. واتجه بيدرو بالا، و «الشارب اللطيف»، و «حبيب الله الطيب» نحو «كاندونبليه»[18] في «غانتوا». (وهذا الأخير كان أوغانياً[19]) حيث ظهرت الالهة «أومولو» بثيابها الطقوسية الحمراء وأعلنت لأولادها الاعزاء الصغار الفقراء، أن البؤس سينتهي عما قريب، وأنها سوف تنشر الجدري بين الاغنياء، وأن الفقراء سيألون الغذاء الجيد، وسيكونون سعداء. كانت الاتاباكات[20] تعرف في ليلة «أومولو». وقد اعلنت هذه أن يوم انتقام الفقراء سيأتي كانت الزنجيات يرقص، والرجال مبتهجين. أصبح يوم الانتقام قريباً.

راح بيدرو بالا يسير عبر شوارع المدينة بمفرده، اذ أن «الشارب اللطيف» و «حبيب الله الطيب» قد ذهبا للرقص في حفلة راقصة للزنوج الفقراء. ونزل بيدرو في الطرقات المنحدرة المؤدية إلى المدينة السفلى. كان يسير ببطء، وكأنه يحمل ثقلاً في داخله، كان يمضي وكأنه منحن داخل ذاته كان يفكر في حديث بعد الظهر هذا، مع جان دادام، هذا الحديث الذي ابهجه لأنه أصبح يعرف بعد الآن أن أباه كان من شحان المرفأ، رجلاً ترك قصته. لكن جان دادام تحدث أيضاً عن حقوق عمال الميناء. ولم يسبق أبداً لبيدرو بالا أن سمع قبلاً الحديث عن هذه الحقوق، ومع ذلك فقد مات والده من أجلها. وبعد ذلك، في احتفال ماكومبا في حي غانتوا. قالت الآلهة أومولو، اللابسة زينتها الحمراء إن يوم انتقام الفقراء أصبح قريباً. كل هذا كان يرهق قلب بيدرو بالا. كما كانت هذه الاحمال التي يزن كل منها مئتي كيلوغراماً، ترهق صدر حمالي الميناء.

(١٨) كاندوبليه هنا، معبد ديني لديانة الزنوج الوثنيين.
- ملاحظة من المترجم -

(١٩) أوغاني Ogan. عضو تابع لاحدى كنائس باهيا الفتيشية (شبه الوثنية Fetichistes).

(٢٠) اتاباكات، جمع اتاباك Atabaque، وهو آلة موسيقية يستعملها الزنوج اثناء احتفالاتهم الدينية.
- ملاحظة من المترجم -

حتى وصل إلى أسفل المنحدر، اتجه نحو الرمال مدفوعاً بالرغبة بالذهاب إلى المستودع وليرى أذا كان سينام. ونبح عند مروره كلب، ظاناً أنه سينازعه على العظمة التي كان الكلب يقضمها. وفي آخر الطريق، لمح بيدرو بالا شبحاً غامضاً يتحرك. كان كأنه امرأة تسارع الخطى وحرك جسمه، جسم الغلام الفتي كما يتحرك حيوان فتي لرأى انثى، وبخطوات سريعة. أقترب من المرأة التي كانت الآن تدخل إلى ناحية الرمال. وأز الرمل تحت قدميه، ولاحظت المرأة أن هناك من يتبعها. وكان بيدرو بالا يستطيع أن يراها جيداً حين كانت تمر تحت ضوء الفوانيس. كانت زنجية صغيرة فتية تماماً، في حوالي الخامسة عشرة من عمرها، ربما في مثل سنه، لكن نهديها كانا ينتجسان حادين، وأليتيها ترقصان تحت الثوب، ذلك لأن الزنجيات حتى حين يسرن بخطوات طبيعية، يبدو أنهن يرقصن. وتنامت الرغبة لدى بيدرو بالا: رغبة تضاف إلى امنية يحس بها لخنق القلق الذي يثقل على صدره. ولدى تفكيره بأليتي الزنجية الصغيرة الوثابتين، لم يعد يفكر في موت ابيه المدافع عن حقوق العمال المضربين؛ ولا في الالهة اومولو الداعية إلى الإنتقام في احتفال العبيد والناس الفقراء كان يفكر في القاء الزنجية الصغيرة على الرمل الناعم، ومداعبة نهديها الصلبين (ربما كانا نهدين بكرين، وهما على كل حال نديا بنت صغيرة) وامتلاك جسدها الدافىء جسد الزنجية.

وسارع في خطاه، لأن الزنجية الصغيرة كانت تبتعد عن الطريق التي تجتاز الرمال، للدخول في هذه الرمال، مبتعدة، أي الفتاة، عن مراكز الاضاءة. ولكن حين لاحظت أن بيدرو بالا يصبح في كل مرة اقرب اليها، انطلقت إلى الامام، شبه راكضة وتوهم بيدرو أنها ذاهبة نحو احدى هذه الطرق القائمة وراء المستودع، الضائعة بين الجبل والبحر، وأنها، إذا كانت تجتاز ناحية الرمال، فذلك لتقصير الطريق، والفرار منه بسهولة اكثر كان الصمت يسود المرفأ كله، وأزيز الرمل وحده تحت الخطى كان يجعل قلب الزنجية الصغيرة يرتعش من الرعب، وقلب بيدرو بالا ينبض لشدة الشهوة. لكنه، عند كل خطوة، كان يغدو اقرب اليها، وبعد عشر خطوات، سوف يصل اليها وكان عليها أن تسير كثيراً قبل أن تصل إلى المستودعات القائمة وراء الرمال والطرقات المتاخمة لها. كان بيدرو يبتسم، صاراً على اسنانه، مثل حيوان مفترس يطارد في الصحراء حيواناً آخر يريده رجبة له

وحين كاد يرفع يده ليلمس كتفها وليدير وجهها نحوه، راحت الزنجية الصغيرة تركض. فعدا بيدرو بالا في اثرها، وأدركها بعد قليل. لكنه كان ينطلق بسرعة كبيرة بحيث أنه اصطدم بها، وتدحرج الاثنان على الرمل. ونهض بيدرو بسرعة،

ضاحكاً ، وأصبح قربها ، وهي تستعد للنهوض .

ـ لا داعي لوقوفك ، يا جميلة ،وضعك جيد هكذا .

ـ ماذا تريد مني ؟

ـ لاتتعجرفي ،ايتها السمراء . سوف نتحدث قليلاً

أمسك بذراعها ، وقلبها ثانية على الرمل واجتاحها الخوف مجدداً ، خوف مجنون . كانت قادمة من بيت جدتها ، وعائدة إلى بيتها ، حيث تنتظرها أم وأخوات فلماذا تأخرت حتى الليل ، ولماذا جازفت بالسير على رمال المرفأ ؟ انها لم تكن تعلم أن رمال الميناء هي سرير الحب لجميع اللصوص ، وجميع البحارة ، وجميع « فرسان الرمال » ، وجميع الذين لا يستطيعون أن يحصلوا على امرأة في ظروف طبيعية ، والذين يتعطشون إلى جسد في مدينة باهيا المقدسة . لم تكن تعرف شيئاً من هذا ، كانت بالكاد في الخامسة عشرة من العمر . وكانت قد بلغت مبلغ النساء منذ زمن وجيز وبيدرو بالا كان هو أيضاً بالخامسة عشرة ، ولكن منذ زمن طويل أصبح يعرف ليس فقط الرمال وأسرارها ، بل أيضاً جميع أسرار الحب ، وذلك لأنه اذا كان الرجال يعرفون هذه الاسرار قبل أن تعرفها النساء ، فإن « فرسان الرمال » كانوا يعرفونها قبل أي رجل آخر . كان بيدرو بالا يريد الفتاة لأنه ، منذ زمن طويل ، كان يحس برغبات الرجل ، وكان يعرف مداعبات الحب . وهي لم تكن تريد ذلك لأنها أصبحت امرأة منذ زمن قليل ، وهي تبغي أن تكرس جسدها لخلاسي يتمكن من الحصول على حبها . ولم تكن تريد تسليم نفسها هكذا لأول عابر طريق تلتقي به على الرمال . وظلت هنا وعيناها منطفئتان من الخوف . وأمرّ بيدرو بالا يده على شعر الزنجية الصوفي .

ـ أنت « شقفة رائعة » يا سمراء سوف نصنع نحن الاثنين ولداً صغيراً جميلاً .

وصارعت للابتعاد عنه

ـ دعني ، دعني ايها البائس .

وراحت تنظر حولها لترى اذا كان هناك شخص تستنجد به ، وتستطيع أن تطلب غوثه ، شخص يساعدها للاحتفاظ بهذه البكارة التي قيل لها انها ثمينة . ولكن ، في الليل ، على رمال ساحل باهيا ، لا يرى شيء ، باستثناء الاشباح ، ولا تسمع سوى تنهدات الحب ، وتساقط أجساد متعانقة على الرمل .

أخذ بيدرو بالا يداعب ثدييها ،وكانت هي ،من اعماق الرعب ، تحس بنشوء خيط من الرغبة مثل خيط ماء يجري عبر الجبال ، ويمضي متزايداً ، شيئاً فشيئاً إلى أن يتحول إلى نهر قوي . وهذه الرغبة زادت من رعبها . فإذا لم تتصلب ضد الرغبة ، واستسلمت

للامتلاك ، حينئذ سوف تفقد كل شيء : وستترك على الرمل بقعة من الدم سيضحك منها حالو الميناء في صباح اليوم التالي . إن وضوح ضعفها منحها تجدد وقوة ، وقدرات جديدة . خفضت رأسها ، وعضت يد بيدرو الذي كان يمسك بثديها . أطلق بيدرو صرخة ، وسحب يده ، ونهضت هي وراحت تركض لكنه ادركها ، والآن أصبحت رغبته ممزوجة بالغضب .

ـ سوف ننتهي من قصة هذا الشتاء الذي لا يبلل وحاول أن يبطحها .

ـ دعني أذهب ، يا شقي الحظ . انت تريد أن تحدث لي شقاء . بائس يا ابن امك الجديد دعني اذهب ، فأنا لا علاقة لي بك

كان بيدرو لا يجيب . كان يعرف أخريات يتظاهرن بالشرف ، ـ بصورة عامة لأنهن كان لهن عشاق ينتظرونهن ولم يفترض ، لحظة واحدة أن الزنجية الصغيرة كانت عذراء . لكنها كانت تقاوم ، وتثقله بالشتائم ، وتعضه ، وتضرب بيديها الضعيفتين صدر بيدرو بالا .

ـ ولكن ماذا تظنين ، أيتها الزنجية ؟ هل تعتقدين أنني سأدعك تهربين دون أن تستسلمي ؟ لا تعاندي . إن رجلك لن يعرف أي شيء . ولا أحد سيعرف أي شيء . وسترين ماذا يعني عناق رجل حقيقي . . .

أخذ الآن يحاول مداعبتها . كان يريد أن يسيطر على غضبها ، ويجعلها تحس بالرغبة ، كانت يداه تنزلقان على جسدها ، ومددها بالقوة . والآن أخذت تردد مثل لازمة :

ـ دعني أيها البائس ، دعني .

وشمر تنورتها البائسة ، تنورة الهدية ، وظهرت ساقا الزنجية الصلبتان . لكن احداهما كانت على الاخرى ، وحاول بيدرو بالا أن يباعد بينهما . وراحت الزنجية الصغيرة تقاوم من جديد ، ولكن نظراً لأن الغلام كان يداعبها ، ولأنها كانت تحس بصعود الرغبة العارم ، كفت عن شتمه ، لكي تتوسل اليه برجاء قلق .

ـ دعني ، انني عذراء كن طيباً ولا تمتلكني . سوف تجد امرأة سواي . أنا بكر ، وسوف تؤلمني

نظر اليها : كانت تبكي من الخوف ، وكذلك لأن ارادتها كانت تضعف ، وانتصبت حلمتا ثدييها .

ـ أأنت عذراء ؟ هل هذا صحيح ؟

ـ اقسم على ذلك بالله ، وبالعذراء مريم ،وأخذت تقبل اصابعها الموضوعة بشكل صليب .

تردد بيدرو بالا

بهذا الزنجية الصغيرة المنتصبان، وساقاها الصلبتان، وحصلة الفرج.

ـ هل تقولين الصحيح؟

ـ الصحيح. أنا اقسم على ذلك دعني أذهب أمي تنتظرني.

كانت تبكي. وبيدرو يحس بالألم لكن الرغبة كانت قد استولت عليه وحينئذ اقترح هامساً في اذن الزنجية (وكان لسانه يداعبها):

ـ فقط من الخلف.

ـ لا، لا

ـ ستظلين عذراء تماماً. لامر بسيط.

ـ لا، لا. هذا يسبب الألم.

لكنه كان يلاطفها، وارتعش جسدها كله برعشة رغبة حينئذ بدأت تفهم أنها اذا لم ترضه كما طلب، فستفقد بكارتها وحين وعدها، كان لسانه يهيجها في اذنها:

ـ اذا احدث ذلك لك المأ، فسوف انسحب...

وافقت.

ـ اتقسم بأن ذلك لن يكون من الامام؟

ـ اقسم.

ولكن بعد أن قضى وطره منها أول مرة (وقد صاحت، وعضت يديها) وإذ رأى أن الرغبة ما زالت مستولية عليها، حاول أن يفض بكارتها. لكنها احست بذلك فوثبت مثل مجنونة

ـ ألم يكفك أيها البائس بما فعلت معي. هل تريد إنزال مصيبة بي؟

وراحت تبكي بصوت عال، ورفعت ذراعيها، حتى اشبهت مجنونة، كانت صيحاتها، ودموعها، وشتائمها ضد زعيم «فرسان الرمال» تشكل دفاعها الوحيد. ولكن بالنسبة لبيدرو، كان أكبر دفاع للزنجية هو هاتان العينان المفعمتان بالرعب، عينا حيوان أضعف، ليست لديه قوة للدفاع عن نفسه. ونظراً لأن الشطر الاساسي من شهوته قد أرضي، ونظراً لأن قلق بداية الليلة هذه قد استولى عليه من جديد، فقد قال لها:

ـ اذا تركتك، هل تعودين غداً؟

ـ سأعود، نعم.

ـ لن أفعل لك إلا ما فعلته اليوم. وسأتركك عذراء.

هزت رأسها بالايجاب. كانت عيناها عينا مجنونة وفي هذه اللحظة لم تكن تحس الا بالالم، وبالرعب، وبرغبة في الفرار. والآن، حين لم تعد يداه، ولا شفتاه، ولا قضيب بيدرو تلامس جسدها، فقد انطفأت رغبتها، ولم تعد تفكر إلا بحماية بكارتها. وتمتمت الصعداء حين قال لها:

ـ اذن، تستطيعين الذهاب. ولكن اذا لم تعودي في الغد... حين سأقبض عليك سرين بأي حبل تربط العنزة..

أخذت تسير، دون أن تجيب بشيء. لكن الغلام لحق بها.

ـ سأرافقك، لكي لا يعترض سبيلك لص ما...

سارا معاً، وأخذت تبكي. كان يريد أن يمسك بيدها، لكنها امتنعت، وابتعدت عنه. حاول مجدداً ومجدداً سحبت يدها. حينئذ صاح:

ـ ماذا يعني هذا، بحق الشيطان!

وسارا واليد باليد. كانت تبكي، وهذا البكاء، اثار قلق بيدرو بالا، مجدداً قلقه في ساعات الليل الأول، ورؤى أبيه الذي سقط في النضال، ورؤى الآلهة .مولو التي اعلنت ساعة الانتقام وراح يلعن في دخيلته لقاءه بالزنجية، وسارع في خطاه، للوصول في اسرع وقت إلى مدخل الطريق كانت تبكي بمرارة، فقال لها في غضب:

ـ ماذا حدث لك؟ لم يحدث لك شيء..

اكتفت بالنظر اليه وكانت عيناها (مع انها كانت ما تزال تسير إلى جنبه، وأنها ما زالت مرتعبة) مفعمتين بالعصاء والازدراء. خفض بيدرو رأسه، ولم يعد يدري ما يقول. ولم يعد في قلبه لا الرغبة ولا الغضب، بل فقط الأسى. وسمعا لحن سامبا كان رجل يغنيه في الشارع. واشتد بكاؤها، وراح هو يضرب الرمل بقدميه. الآن كان يحس بأنه أكثر ضعفاً منها، وكانت يد الزنجية الصغيرة تثقل يده، وكأنها من رصاص. ترك اليد، فابتعدت الفتاة عنه، فلم يحتج. كان يتمنى لو أنه لم يلتق بها ولو أنه لم يلتق بـ جان دادام، ولو أنه لم يذهب إلى حي غانتوا.

ووصلا إلى الطريق، وقال لها:

ـ الآن تستطيعين الذهاب لن يسيء اليك احد... ونظرت إليه مجدداً ببغضاء، وراحت تركض ولكن عند أقرب زاوية من الطريق، توقفت، والتفتت نحوه، (وكان ما يزال ينظر إليها) وانهالت عليه بالشتائم واللعنات، بصوت ملأه خوفاً:

ـ فليرافقك الطاعون والجوع والحرب، أيها الشقي. وليعاقبك الله، أيها الشقي، يا ابن النعي، البائس، البائس كان صوتها المنفرد يجتاز الطريق، ويثير قلق بيدرو بالا.

أما هي ، فقبل أن تختفي عند منعطف الشارع ، نصقت على الأرض ، في ازدراء شديد جداً وكررت قائلة :

ـ شقي ... شقي ...

لبث ساكناً في البدء ، ثم انطلق راكضاً عبر الرمال ، وكان منطلقاً كأن الرياح تسوطه ، وكأنه يفر من لعنات الزنجية الصغيرة . وكان يحس برغبة في الارتماء في البحر لكي يغسل نفسه من كل هذا القلق ، وبالرغبة في الانتقام من الناس الذين قتلوا أباه ، أنها العصاة التي يحس بها ضد المدينة الغنية ، التي كانت تمتد في الجانب الآخر من البحر ، في أحياء « الحاجر » ، و « النصر » ، و « النعمة » ، وبأس حياته كولد متشرد ، تخلى عنه اهله ، ولد مطارد (بفتح الراء) ، والألم الذي كان يحس به ازاء الزنجية الصغيرة المسكينة ، التي هي ولد أيضاً .

« ولد ، هي أيضاً » ، هذا ما كان يسمعه في صوت الرياح ، وفي السامبا التي يغنيها رجل مجهول ، وصوت يقول ذلك في نفسه

مغامرة أوغون

في ليلة أخرى ، ليلة شتوية قاتمة ، لم يكن الصيادون خلالها يغامرون بركوب البحر ، ليلة غضب بيانجا وكسانغو ، في حين كانت ومضات البرق هي الضوء الوحيد في السماء الملبدة بغيوم ثقيلة وسوداء ، ذهب بيدرو بالا ، و « ذو الرجل الرخوة » ، وجواو غراندي ، لمرافقة الماي ـ دي ـ سانتو دون آنينها ، إلى منزلها البعيد . وكانت قد جاءت إلى المستودع في فترة بعد الظهر طالبة منهم خدمة ما ، وفي حين كانت توضح ما تريد ، حل الليل ، مذهلاً ورهيباً .

ـ لقد غضب أوغون ... قالت الماي ـ دي سانتو هذا موضحة .

وهذا هو السبب نفسه الذي قادها إليهم . وأثناء مداهمة الشرطة لأحد المعابد ـ الذي ، وإن كان ليس هو معبدها ، لأنه ما من شرطي يتجاسر بمداهمة معبد آنينها ، ـ فهو موضوع تحت حمايتها ـ استولت الشرطة على صورة أوغون ، التي كانت موضوعة على مذبح معبدها وقد استخدمت دون آنينها كل سلطتها لدى احد الحراس لكي تستعيد القديس بل لقد ذهبت إلى منزل استاذ في كلية الطب ، صديقها ، الذي كان يأتي لدراسة الدين الزنجي في معبدها ، طالبة إليه إعادة آلهتها . وكان البروفيسور يعتقد تماماً أنه سيحصل من الشرطة على إعادة الصورة ، ولكن لكي يضيفها إلى مجموعته من الاوثان الزنجية وليس لاعادتها إلى مذبحها في المعبد البعيد . لهذا السبب ، ولأن أوغون كان في غرفة المعتقلين في مركز الشرطة ، فإن كسانغو ، في تلك الليلة ، كان يطلق بروقه الغاضبة وفي النهاية جاءت دون آنينها إلى حيث يقيم « فرسان الرمال » ، أصدقاؤها منذ زمن طويل ، لأن جميع الزنوج ، وجميع فقراء باهيا هم أصدقاء الماي ـ دي ـ سانتو . وكان لديها لكل منهم ، كلمات ودية وأمومية . إنها تشفي المرضى ، وتجمع العشاق ، ورقى سحرها تقتل الاشرار . وأوضحت ما حدث لبيدرو بالا . لم يكن زعيم « فرسان الرمال » يرتاد المعابد الشعبية كما أنه لم يكن يصغي إلى دروس الأب جوزيه بيدرو . لكنه كان على حد سواء ، صديق الكاهن ، وصديق الماي ـ دي ـ سانتو ، وعند « فرسان الرمال » ، حين كان هناك صديق ، يخدمون هذا الصديق .

والآن كانوا يرافقون آنينها إلى منزلها. كان الليل حولهم مضطرباً ومفعماً بالغضب. وكان المطر يحني اجسامهم تحت مظلة الماي - دي - مانتو البيضاء الكبيرة. وكانت طبول المعابد الشعبية تدق بايقاع لرد الاهانة التي الحقت بأوغون، وربما في أحد هذه المعابد، أو في العديد منها، كانت أومولو تنذر بانتقام الناس الفقراء. وقالت دون آنينها للغلمان بصوت مرير:

- إنهم لا يدعون الفقراء يعيشون. وهم لا يتركون اله الفقراء في سلام. الفقير لا يستطيع أن يرقص، ولا أن يرتل لألهه، ولا أن يطلب نعمة من إلهه.

كان صوتها مريراً. صوت لم يكن يبدو أنه صوت ماي - دي - مانتو دون آنينها، وتابعت تقول. إنهم يكتفون بترك الفقراء يموتون من الجوع. فالآن ينتزعون القديسين من الفقراء . ورفعت قبضتها

أحس بيدرو بالا بموجة تعصف في دخيلته. لم يكن الفقراء يملكون شيئاً. كان الأب حوزيه بيدرو يقول ان الفقراء، سيذهبون في يوم من الأيام إلى ملكوت السماوات، حيث سيكون الله واحداً بالنسبة للجميع. لكن عقل بيدرو بالا الفتي لم يكن يجد أية عدالة في هذا؛ في مملكة السماوات الجميع سيكونون متساوين. لكنهم على الارض ليسوا كذلك. فكفة الميزان تميل دائماً إلى جانب معين.

بأشد من أنغام الاعوغوات والأتاباكات [٢١] التي كانت ترد الاهانة الملحقة بأوغون، كانت لعنات ماي-دي-مانتو دون آنينها تملأ الليل. وكانت دون آنينها، ذات القامة الطويلة والنحيفة، تمثل نموذجاً ارستقراطياً للزنجية، وكانت تحسن ارتداء ثياب الزنجيات الباهيانيات، أفضل من أية أمرأة أخرى. كان وجهها مرحاً، مع أن نظرة واحدة منها كانت كافية لأن توحي باحترام مطلق. في هذا، كانت تشبه الأب جوزيه بيدرو. لكنها الآن كانت ذات هيئة مفزعة، ولعناتها ضد الاغنياء وضد الشرطة كانت تملأ ليل باهيا. وقلب بيدرو بالا.

وحين تركاها. محاطة بـ «بناتها القديسات»، اللواتي كن يقبلن يدها، وعدها بيدرو بالا قائلاً:

- لا تهتمي، أيتها الأم دون آنينها عداً سوف أعيد إليك أوغون.

(٢١) الاغوغوات والاتاباكات: جمع اعوغو وأتاباك، وهما آلتان موسيقيتان يستخدمها الزنوج في احتفالاتهم الدينية.
- ملاحظة من المترجم -

ضربت بيدها على رأسه الأشقر، وابتسمت وقبل حواو غراندي و «ذو الرجل الرخوة» يد الزنجية، وهبطوا جميعاً طريق الساحل، وكانت الاعوغوات والاتاباكات تصدح لغسل الاهانة التي الحقت بأوغون.

إن «ذا الرجل الرخوة» من جهته، لم يكن يؤمن بأي شيء، لكنه كان يريد خدمة دون آنينها، وسأل:

- ماذا سنفعل؟ إن «البضاعة» هي مع الشرطة ..

بصق حواو غراندي. وقد انتابه خوف ما:

- لا تقل عن أوغون إنه «بضاعة» يا «ذا الرجل الرخوة». .

ومزح «ذو الرجل الرخوة» قائلاً:

- إنه سجين فهو لا يستطيع أن يفعل أي شيء .

صمت حواو غراندي، ذلك لأنه كان يعلم أن أوغون قوي جداً، وأنه، حتى وهو في السجن، يستطيع أن يعاقب «ذا الرجل الرخوة» وحك بيدرو بالا ذقنه، وطلب سيجارة.

- دعني احتر هذه المسألة. هناك حسابات يجب أن نؤديها لقد وعدنا دون آنينها. والآن يجب أن نقوم بذلك.

نزلوا نحو المستودع كان المطر يدخل عبر ثقوب السقف. وكان أكثر الغلمان يتكدسون في الزوايا، حيث السقف غير مثقوب. وقد حاول «الاستاذ» اشعال شمعته، لكن الريح بدت أنها تلاعبه فكانت تطفئ الشمعة لحظة بعد لحظة. وفي النهاية تخلى عن القراءة، وانهمك في لعبة «السبعة والنصف» مع «القط» الذي كان يشرف على الصندوق، يساعده «الشارب اللطيف» في احدى الزوايا. وكانت قطع العملة تتدحرج على الأرض، ولكن لم يكن بوسع اي صوت أن يلهي «سكر الشعير» عن صلواته أمام العذراء ماري، والقديس أنطوان

في ليالي الشتاء هذه، لم يكن في استطاعتهم النوم. ولحظة بعد أخرى، كان وميض برق يضيء المستودع، وحينئذ كانت تتميز الوجوه النحيلة والقذرة «لفرسان الرمال» وكان كثيرون منهم صغاراً، بحيث أنهم كانوا يخافون التنانين والمسوخ الأسطورية. وكانوا يلوذون بالاكبر منهم سناً، الذين لم يكونوا يحسون بسوى البرد والنعاس. وآخرون، وهم الزنوج، كانوا يسمعون عبر دوي الرعد، صوت كسانغو. وبالنسبة للجميع، كانت ليالي العاصفة هذه، رهيبة مفزعة. وحتى «القط»، الذي كان لديه صدر امرأة يريح عليه رأسه الصبياني، كانت ليالي العاصفة ليالي سيئة. لأنه لي

هده الليالي ، كان رجال ـ في المدينة ليس لديهم لكي يريحوا رؤوسهم الخائفة ، سوى سرير رجل اعزب ، وهم يريدون اغراق رعبهم في صدر امرأة ـ في هذه الليالي ، كان رجال يدفعون المال ليناموا مع « دالما » ، ويدفعون جيداً . وهكذا ، ظل « القط » في المستودع ، متولياً الصندوق ، مع أوراقه المزيفة ، يعاونه في الغش « الشاوب اللطيف » . كانوا يجلسون كلهم ، مجتمعين قلقين ، لكنهم كانوا وحدهم مع ذلك ، يحسون بأنه ينقصهم شيء ما ، وليس فقط سرير دافيء في غرفة مقفلة جيداً ، بل ايضاً الكلمات الحنون من أم أو من أخت ، تذيب خوفهم . كانوا يتجمعون مكدسين بعضهم إلى جانب بعض ، وبعضهم يرتجف من البرد ، تحت قمصانهم وبنطالاتهم الممزقة . وآخرون كانوا يلبسون سترات صغيرة مسروقة ، أو ملتقطة عن المزابل ، وهي سترات يستعملونها كمعاطف بل كان لدى « الاستاذ » معطف كبير جداً ، بحيث كان يكنس به الأرض .

في أحد الايام ، وكان ذلك في الصيف ، توقف رجل ، وكان يرتدي معطفاً كبيراً ، ليشرب مرطبات في أحد مطاعم المدينة . كان يبدو أنه غريب . كان ذلك في منتصف فترة بعد الظهر ، وكان الحر يشوي الاجساد . لكن الرجل كان يبدو أنه لا يحس بالحر ، لابساً معطفه الجديد واعتبر « الاستاذ » أن منظر الرجل طريف ، وقد اعجبه منه بوجه خاص ، شكل رأسه الغريب . وبدأ يرسم هذا الرجل (مع معطف هائل الضخامة ، أكبر من الرجل) ، وذلك بالطبشور ، على الرصيف . وكان « الاستاذ » يضحك بسرور ، لأن الرجل ، ربما سيعطيه قطعة ذات الألفي ريس . واستدار الرجل على كرسيه ، ونظر إلى الرسم ، شبه المنتهي . وكان « الاستاذ » يضحك إذ كان يرى الرسم ممتازاً ، مع هذا المعطف الذي يسيطر على الرجل ، ويغلبه على امره . لكن الرجل لم يتذوق المسألة ، واستولى عليه غضب شديد ، فنهض عن كرسيه ، ولبط « الاستاذ » لبطتين . فأصابت احداهما الغلام في خصره ، فتدحرج على الرصيف وهو يئن . ووضع الرجل أيضاً قدمه على وجه الصبي ، وقال له وهو يبتعد محتقن الوجه .

ـ خذ أيها الأزعر ، لتتعلم أن تسخر من الناس

وانطلق وهو يرن النقود في كفه ، بعد أن محا الرسم نصف محو . وهرعت النادلة وساعدت « الاستاذ » على النهوض ونظرت باشفاق إلى الرسم وقالت :

ـ يا للبهيم ! رغم أن الرسم مشابه . . انه احمق !

ودست يدها في جيبها ، حيث كانت تحتفظ بما تناله من بقشيش ، وأخرجت قطعة ألف ريس . وأرادت أن تعطيها لـ « الاستاذ » . لكنه رفضها ، كان يعلم أنه بحاجة

اليها ، لكنه لم يستطع أخذها ، وأخذ يتأمل في الرسم شبه الممحو ، وتابع طريقه ، ويداه على جنبه . كان يسير دون أن تراوده أية أفكار ، والغصة في صدره . لقد أراد ارضاء الرجل ، وأن يستحق قطعة نقود منه . وقد تلقى لبطتين . وكلمات فقط لم يكن يفهم لماذا هم مكروهون هكذا في المدينة ؟ إنهم أولاد فقراء ، بدون أب ولا أم . فلماذا يكرهم هكذا أولئك الرجال ذوو الملابس الجيدة ؟ مشى يرافقه ألمه ؛ ولكن حدث أنه التقى من جديد في الصحراء الرملية تحت الشمس ، على طريق المستودع ، بعد فترة قصيرة ، بالرجل ذي المعطف كان يبدو أنه يتجه نحو احدى السفن الراسية في المرفأ . وكان ، الآن ، يحمل معطفه على ذراعه ، ذلك لأن الشمس كانت محرقة . استل « الاستاذ » سكينه (وكان نادراً ما يستعمله) واقترب من الرجل . وكان الحر قد أبعد عن الرمال جميع الناس ، وكان الرجل ذو المعطف يمر عبر الرمال ، ليقصر الطريق المؤدية إلى المرفأ . واندس « الاستاذ » في صمت وراء الرجل ، وحين أصبح قريباً منه ، انتصب امامه ، وفي يده السكين . إن مجرد رؤية الرجل قد حولت متاهة مشاعره إلى شعور وحيد : الانتقام ونظر إليه الرجل مرتعباً . كان « الاستاذ » يكبر في مواجهته ، وسكينه في يده وهمس من بين اسنانه :

ـ اليك عني ، ايها اللص .

تقدم « الاستاذ » مع سكينه ، وامتقع وجه الرجل .

ـ ماذا يعني هذا ؟ ماذا يعني هذا ؟ وراح ينظر في كل ناحية ، آملاً بأن يرى ظهور شخص ما ولكن على ارصفة المرفأ البعيدة ، كان يرى رجالاً بعيدين ايضاً حينئذ راح الرجل ذو المعطف يجري لكن « الاستاذ » وثب عليه . وطعن يده بسكينه ، فألقى الرجل معطفه على الأرض ، وكان الدم يسيل من يده على الرمل وانطلق « الاستاذ » في اتجاه معاكس . وبقي لحظة لا يدري ماذا يفعل . لن يلبث حارس أن يظهر ، ثم سينضم إليه حراس كثيرون . يشاركون في مطاردته مع الرجل . وإذا كانت سفينة الرجل ستبحر فوراً ، فإن كل شيء سيكون على ما يرام . وستكون المطاردة قصيرة الامد . ولكن اذا تأخرت السفينة في الرحيل ، فسيطارده الرجل بالتأكيد ، إلى أن يدركه ، ويودعه السجن . وحينئذ تذكر « الاستاذ » الفتاة خادمة المطعم ، فاتجه نحوه ، ومن الحديقة المواجهة للمطعم ، أشار إلى الفتاة بأن تأتي . فركضت الفتاة نحوه ، وفهمت بسرعة حين رأته ومعه المعطف . وحذرها « الاستاذ »

ـ هناك جرح في يده .

ضحكت الفتاة :

ـ لقد انقمص البس كذلك؟ وأخذت المعطف إلى المطعم، ووضعته في مكان أمين، واختفى «الاستاذ»، إلى أن اجرت السفينة. لكن «الاستاذ» كان يتابع من مكانه، حركة الحراس عبر الرمال، وفي الطرقات المجاورة. على هـذا النحـو حصـل «الاستاذ» على المعطف، الذي لم يرد بيعه أبـداً. لقـد كسـب معطفـاً وكثيراً مـن الغضاء وبعد ذلك بأعوام، حين أدهشت لوحاته الجدرانية الكبيرة، البلاد (كانت تمثل موضوعات عن حياة اولاد مشردين، ومتسـولين كبـار السـن، وشغيلـة وعمال موانيء يقومون بهدم السجون)، وقد لوحظ أن البورجوازيين الضخـام الاجسـام، كانوا يظهرون دائماً في رسوم «الاستاذ»، مرتدين معاطف ضخمة، تتمتع بشخصية أكثر من لابسـيها. دخل بيدرو بالا، وجواو غرانـدي، و«ذو الرجل الرخوة» إلى المستودع. واتجهوا نحو الجماعة التي كانت تلعب حول «القط». وحين وصلوا توقف اللعب لحظة، وألقى «القط» نظرة على الثلاثة:

ـ هل تلعبون لعبة السبعة والنصف؟

فأجاب «ذو الرجل الرخوة»:

ـ وهل يظهر علي أني أبله؟

جلس جواو غراندي يراقب. وابتعد بيدرو بالا مع «الاستاذ» إلى احدى الزوايا. كان يريد ايجاد وسيلة لانتزاع صورة أوعون من الشرطة. وتناقشا هزيعاً من الليل، وكانت الساعة الحادية عشرة تدق، حين خاطب بيدرو بـالا، قبـل خـروجـه جميـع «فرسان الرمال»:

ـ أيها الأصدقاء، سوف اقوم أنا بضربة قوية. فإذا لم احضر إلى هنا غداً صباحاً فسأكون في المخفر، وسوف يدفعونني لكي اتعفن في دار الاصلاحية. سوف أفر... أو انكم ستقومون بأخراجي من هناك..

وخرج ورافقه جواو غراندي حتى الباب، وانضم «الاستاذ» مجدداً إلى «القط». كان الغلمان الأصغر سناً ينظرون إلى رحيل زعيمهم بشيء من الخوف. لقد وضعوا في بيدرو بالا ثقة كبيرة، وبدونه، كثيرون منهم لا يعرفون كيف يتدبرون أمورهم. وخرج «سكر الشعير» من زاويته، قاطعاً صلاته

ـ ما هي المسألة؟

ـ ذهب بيدرو للقيام بمهمة صعبة، فإذا لم يعد في الغد، فذلك يعني أنه قد قبض عليـه.

ـ سوف نخرجه من السجن! هكذا قال «سكر الشعير» بلهجة طبيعية، وما كـان

يمكن أن يقال انه قبل دقائق كان يصلي، أمام صورة العذراء، لخلاص روحه الصغيرة، روح اللص. وعاد إلى قديسيه، ليصلي من أجل بيدرو بالا.

واستؤنف لعب الورق. في الخارج كان المطر وومضات البرق، والرعد والسحب في السماء، كان برد شديد يسود المستودع. وقطرات من الماء تتساقط على الأولاد الذين كانوا يلعبون لكن اللعب، الآن لم يعد يستأثر باهتمامهم، و«القط» هو نفسـه كان ينسى أن يكسب، وفي المستودع كان يسود نوع من الارتباك. وقد استمر ذلك إلى أن قال «الاستاذ»:

ـ سوف أذهب لأرى ماذا يحدث...

وقد رافقه جواو غراندي، و«القط». في تلك الليلة، كان «سكر الشعير» هو الذي رقد عند باب المستودع، والخنجر تحت رأسه. وقربه، كان «ذو الكوع الناشف» يسبر غور الظلام بوجهه القاتم. وكان يتساءل أين يمكن أن تكون، في هذا الليل المظلم، جماعة لامبياو. ربما كانت، في هذا الليل العاصف، تقاتل الشرطة كما سيفعل بعد قليل بيدرو بالا. وكان «ذو الكوع الناشف» يعتقد بأن بيدرو بالا حين سيبلغ سن الرجال، سيكون بمثل شجاعة لامبياو كان لامبياو سيد البر الداخلي، وسيد السهوب التي لا نهاية لها. وسيكون بيدرو بالا سيد المدينة، والمباني والشوارع، وأرصفة الميناء، وأن «ذا الكوع الناشف» الذي هو من البر الداخلي، يستطيع أن يمضي عبر السهـوب، وعبر المدن، لأن لامبياو كان عرابه، وبيدرو بالا صديقه وقلد صياح الديك، وكانت تلك اشارة إلى أن «ذا الكوع الناشف» كان سعيداً.

حين كان بيدرو يرقى جانب الجبل، كان يستعيد ذهنياً خطته لقـد وضعهـا بمساعدة «الاستاذ» ومن بين جميع العمليات التي جازف بها، كانت العملية الحالية أكثرها خطراً. لكن الدون آنينها تستحق أن يتعرض لهذه المجازفة من أجلها، فحين كان يمرض احدهم، كانت تحضر الادوية المصنوعة من اوراق النبات، وتعنى به، وفي كثير من الاحيان تشفيه. وحين كان يظهر في أرضها غلام من «فرسان الرمال»، كانت تعامله كرجل، وتعطيه أفضل ما عندها من طعام وشراب. كانت الخطة مجازفة، وربما لن تعطي أية نتيجة وبيدرو بالا، بعد أن يذوق السجن بضعة أيام، سينتهي به الامر إلى الاصلاحية، هناك حيث الحياة اشد بؤساً من حياة الكلب. ولكن كانت هناك فرصة لأن تنجح الخطة وسيلعب بيدرو بالا لعبة الكل بالكل على هذه الامكانية. ووصل إلى ساحة «المسرح». كـان المطـر يهطـل، ورجـال الشرطـة يتقـون المطـر بمعاطفهم. وراح بيدرو يرتقي على مهل، طلعة ساو ـ بنتو، وسلك الطريق عبر ساو ـ

بيدرو ، واجتاز ساحة « البيداد » ، وسلق شارع روزاريو ، والآن أصبح امام « المركز الرئيسي للشرطة » ، يراقب النوافذ وتحرك رجال الشرطة ، والمفتشين الذين كانوا يدخلون ويخرجون . وبين دقيقة وأخرى ، كان يمر ترام ، دافعاً القضبان الحديدية إلى الصرير ، رائداً من اضاءة الشارع المضاء اصلاً . وقد ابلغه الحارس وهو صديق دون آنيها ، أن تمثال « أوغون » موجود في قاعة المعتقلين ، ملقى على خزانة ، في وسط اشياء أخرى مسوعة ، صودرت أثناء مداهمات مختلفة قامت بها الشرطة لمنازل لصوص وفي هده القاعة ، كان يوضع أولئك الذين اعتقلوا أثناء الليل ، قبل أن يجري استجوابهم سواء من قبل المندوبين ، أو من قبل مفوضي الخدمة ، والذين يجري أرسالهم بعد ذلك إما إلى السجون ، وإما إلى الشارع (أي يطلق سراحهم) . وهناك ، في زاوية ، في البدء ، في حوانة كانت تمتلئ بسرعة ، ثم إلى جانبها أو فوقها ، كانت توضع أشياء غير ذات قيمة ، جرت مصادرتها أثناء مداهمات رجال الشرطة وكانت خطة بيدرو بالا تقوم في أن يقضي الليل ، أو شطراً منه ، في قاعة المعتقلين ، والخروج (اذا استطاع الخروج) حاملاً تمثال الآله أوغون وكانت لدى بيدرو بالا أفضلية كبيرة : كان مجهولاً لدى الشرطة وبالاضافة إلى ذلك ، كان عدد قليل جداً من الحراس يعرفونه كمتشرد في الشارع . رغم أن جميع الحراس ، وحتى بعض المفتشين ، يرغبون بشدة في القبض على زعيم « فرسان الرمال » . وكانوا يعلمون عنه فقط أن في وجهه ندبة ، وأمرٌ بيدرو بالا يده على هده الندبة . لكنهم كانوا يظنونه أطول قامة ، مما هو في الواقع ، وكانوا يعتقدون أن بيدرو بالا هو خلاسي ، وأكبر سناً . وإذا ما توصلوا لمعرفة زعيم « فرسان الرمال » ، فإنهم لن يرسلوه إلى الاصلاحية ، حيث يسهل الفرار ، بل سيرسل إلى السجن ، حيث لا يسهل الفرار على كل حال ..

سار بيدرو بالا حتى كامبو ـ غراندي . لكنه لم يعد يسير بتلك الخطوة اللامبالية ، خطوة لص شوارع المدينة . بل كان يمضي الآن وهو يترنح مثل ابن بحار ، وقد اسدل كاسكته على عينيه بسبب المطر ، رافعاً قبة سترته السوداء (كان صاحبها في الماضي ، رجلاً طويل القامة)

كان الحارس يقف تحت شجرة بسبب المطر واقترب منه بيدرو بالا . كولد خائف وحين خاطب الحارس ، كان صوته صوت ولد خائف من ليل المدينة العاصف :

ـ سيدي الحارس ..

نظر اليه الحارس :

ـ ماذا تريد ، أيها الغلام .

ـ أنا لست من هنا . أنا من مارغراندي . وقد جئت مع والدي اليوم .

لم يدعه الحارس يكمل كلامه . بل قاطعه :

ـ وماذا تعمل هنا ، يا صبي ؟

ـ لست أدري أين أنام أود أن تسمح لي بالنوم عند الشرطة .

ـ مقر الشرطة ليس فندقاً ، أيها الأزعر . هيا ، اذهب من هنا ، اذهب وأشار إلى بيدرو بالابتعاد .

حينئذ حاول بيدرو اتمام المحادثة ، لكن الحارس هدده بهراوته :

ـ اذهب ونم في حديقة ، اذهب من هنا .

ذهب بيدرو وعلى وجهه غم وألم . واستمر الحارس برصد الغلام . وتوقف بيدرو عند محطة الترام ، وبقي ينتظر لم ينزل احد من الحافلة الأولى ، ولكن من الحافلة الثانية نزل زوجان . انقض بيدرو بالا على المرأة ورأى الرجل أن الغلام يريد أن يختطف محفظتها ، فأمسك به من ذراعه . وكان الفتى يقوم بالعمل بصورة سيئة ، بحيث لو رآه أحد من جماعة « فرسان الرمال » لما عرف أن هذا الغلام هو زعيمهم وكان الحارس الذي تابع المسألة قد وصل اليهم .

ـ اذن ، على هذا النحو انت لست من هنا ـ أيها اللص السارق ..

وابتعد ، قابضاً على بيدرو بالا من ذراعه . كان الغلام يسير ووجهه نصف خائف ، ونصف ضاحك :

ـ لقد فعلت هذا لكي تقبض علي . . .

ـ ماذا ؟

ـ إن كل ما قلته ، هو الحقيقة . إن والدي بحار . ولديه زورق في مارغراندي . واليوم ، تركني هنا ، ولم يعد . بسبب العاصفة . وأنا لا أدري أين أنام . لقد طلبت النوم في المخفر . وأنت لم ترد ذلك ، وحينئذ تظاهرت بأنني سأسرق المرأة وذلك فقط لكي تقبض علي . والآن ، لدي مكان أنام فيه .

ـ ولرمن طويل .

كان ذلك هو الجواب الوحيد للحارس . ودخلا إلى مركز الشرطة . واجتاز الحارس رواقاً ، وترك بيدرو بالا في غرفة المعتقلين . كان فيها خمسة أو ستة رجال . وقال الحارس مزمجراً

ـ الآن تستطيع النوم . يا ابن امك الجديد ، وبعد ذلك ، حين سيأتي المفوض ، سترى كم من الزمن ستنام هنا ..

لزم بيدرو الصمت. ولم يعره المعتقلون الآخرون أي انتباه، وكانوا يهتمون أكثر بكثير بشخص لوطي قبض عليه، وهو يقول أنه يدعى «مارينيت». وفي احدى الزوايا، شاهد بيدرو الخزانة. وكانت صورة «أوغون» على جانبها، قرب سلة الورق. وفي حين كان الآخرون يتحادثون، لف تمثال أوغون (لم يكن كبيراً، وكان هناك تماثيل أكبر منه بكثير) في سترته، وتمدد على الأرض. ووضع يده على الرزمة، وتظاهر بالرقاد.

استمر معتقلو تلك الليلة يسخرون من اللوطي، باستثناء رجل عجوز كان يرتعد في زاوية. كان بيدرو يجهل ما اذا كان بكاء الرجل من البرد أم من الخوف. لكنه سمع صوت زنجي شاب يقول لـ «مارينيت»:

- من الذي فض بكارتك؟

- أوه، دعني. هكذا أجاب اللوطي ضاحكاً

وقال الآخرون. لا. احك لنا، احك

- آه.. إنه ليوبولد آه!

استمر العجوز يرتعد. ولاحظه في الزاوية لص جدر السل وجهه:

- لماذا لا تلتصق بهذا العجوز؟

هكذا سأل الزنجي الذي كان يعلك لباناً، الفتى المسمى «مارينيت».

قال الفتى اللوطي. ألا ترى انني لا أركض وراء العجائز؟ ثم، هذا يكفي، «حل عني.»

والآن. كان حارس يضحك عند الباب، والتفت الرجل المجدور الوجه نحو العجوز الذي انكمش على نفسه.

- أما أنت. فكنت تريد تماماً لو أن هذا الفتى، «مارينيت» قد دبرك.. أليس كذلك يا عماه؟

- أنا رجل عجوز ولم افعل أي شيء هكذا همس العجوز، أكثر من كونه تكلم. أنا لم أفعل أي شيء وابنتي تنتظرني

حزر بيدرو الذي كان مغمض العينين، أن الرجل كان يبكي، لكن بيدرو استمر بتظاهر بالنوم. كان تمثال «أوغون» يؤلم رأسه وواصل المعتقلون يمزحون في صدد الفتى اللوطي والعجوز، إلى أن وصل حارس آخر، قال للعجوز:

- اسد، ايها العجوز.. هيا بنا

قال العجوز مجدداً. أنا لم أفعل أي شيء إن ابنتي تنتظرني. كان يخاطب

الجميع، الحراس والمعتقلين، وكان يرتجف بشدة بحيث أن الجميع أحسوا بالألم، وحتى اللص المجدور الوجه، قد خفض عينيه، كان الفتى اللوطي وحده يبتسم.

لم يعد العجوز. ثم جاء دور الفتى اللوطي. وغاب فترة طويلة، وقد أوضح الرجل المغضن الوجه أن «مارينيت» هو من عائلة طيبة وبالطبع، كان قائد الشرطة يجري تصالاً هاتفياً بأهله، طالباً أن يحضروا لاخذه، لكي لا يضطر لاعتقاله هذه الليلة. وبين حين وآخر، حين يتعاطى كمية كبيرة من الكوكايين، كان يحدث فضيحة في الشارع، ويعتقله أحد الحراس. وحين عاد «مارينيت»، كان ذلك فقط لاخذ قبعته وحينئذ رأى بيدرو بالا ملقى على الأرض فقال،

- إنه فتي جداً، هذا الغلام. لكنه جميل جداً حدق بيدرو، وعيناه مغمضتان، ثم قال:

- اذهب يا لكع!، قبل أن اسحق بوزك...

ضحك الآخرون، وحينئذ فقط، خاطبوا بيدرو:

- ماذا تصنع هنا، يا جرذ الكنيسة؟

- هذا لا يعنيك، يا شحرة السعادين. هكذا اجاب بيدرو الرجل ذا الوجه المفرغ

الحارس نفسه اخذ يضحك، وأوضح للآخرين قصة بيدرو. لكن الزنجي الشاب استدعي بدوره، وبقي الباقون صامتين كانوا يعلمون أن الزنجي قد سدد طعنة سكين إلى رجل في مقهى، وحين عاد، كانت يداه متورمتين من الضربات التي تلقاها. وأوضح قائلاً:

- إنهم يقولون أنه ستجري محاكمتي بسبب جروح خفيفة... أما هم، فقد سددوا إلي دزينتين من الضربات.

وصمت، وبحث عن زاوية. وارتمى فيها. وصمت الآخرون هم أيضاً. وتناوبوا واحداً بعد آخر حيث كان يستجوبهم المفوض. كان يطلق سراح البعض، والآخرون يرسلون إلى الحبس، وآخرون يعودون وقد ادماهم الضرب. وكانت العاصفة قد هدأت وكان النهار يشرق وكان بيدرو آخر من استدعي للاستجواب. وترك السترة التي لف بها صورة «أوغون».

كان المفوض محامياً شاباً يتلألأ في اصبعه خاتم مرصع بياقوتة حمراء، وكان يدخن السيغار وحين دخل بيدرو مع الحارس، كان المفوض يطلب القهوة بصوت عال. ظل بيدرو واقفاً امام المكتب، ساكناً بلا حراك. وقال الحارس:

ـ هذا هو الغلام السارق في كاموغراندي

أشار المفوض بيده:

ـ انظر اذا كانت هذه القهوة ستصل أو لا تصل. .

انسحب الحارس وقرأ المفوض تقرير الحارس الذي اعتقل بيدرو بالا، ثم نظر إلى الغلام:

ـ ماذا لديك لتقول؟ ولن تكذب طبعاً. .

روى بيدرو بصوت خائف قصة طويلة. قال إن والده صياد في مارغراندي، وأنه، في هذا اليوم بالذات، في الصباح، جاء مع الزورق، واصطحبه. ولكن اثر ذلك، عاد لكي يحضر حمولة ثانية. وتركه في المدينة يتنزه لأن الصياد سيعود مرة ثانية إلى ناهيا في فترة بعد الظهر، وحينئذ يستطيع الغلام العودة مع والده. لكن العاصفة هبت، فحالت دون عودة أبيه، وهو، أي الغلام، الذي لم يكن يعرف أحداً، بقي تحت المطر، دون أن يعرف أين سينام. وسأل رجلاً في الشارع اين يمكنه النوم، فقال «في مخفر الشرطة». وحينئذ طلب من الحارس أن يصطحبه إلى المخفر، لكن الحارس رفض ذلك وهو، أي الغلام، تظاهر حينئذ بأنه يريد سرقة امرأة، لكي يقوده الحارس إلى مركز الشرطة، فينام تحت سقفه

ـ وهكذا فأنا لم اسرق، ولم أفر... هذا ما قاله في ختام افادته.

قال المفوض، الذي كان يتذوق قهوة بجرعات صغيرة، في نفسه:

ـ مستحيل أن يختلق غلام في مثل سنه قصة كهذه...، وأثر ذلك، ونظراً لأنه كان لدى المفوض ـ المحامي ميول أدبية. فقد همس قائلاً: «هذه الحادثة ستكون قصة هائلة» وابتسم بشاشة، وسأل بيدرو.

ـ ما اسم والدك؟

ـ أوغستو سانتوس، وقد اختار اسم بحار معروف في مارغراندي.

ـ اذا كان ما قلته لي صحيحاً، سأطلق سراحك. وإذا تبين أنك تريد خداعي بهذه القصة، فسوف ترى.

ودق الجرس، مستدعياً الحارس كانت اعصاب بيدرو متوترة حداً. ووصل الحارس، وسأله المفوض ما اذا كان لدى الشرطة سجل بأسماء صيادي مارغراندي، الذين يرسون على أرصفة السوق.

ـ نعم يا سيدي، يوجد سجل.

ـ اذهب وانظر اذا كان بين اسم الصيادين صياد اسمه اوغستو سانتوس وعد

وأبلغني الجواب. ولكن عجل لأن ساعة خروجي قد اقتربت.

نظر بيدرو بالا إلى ساعة الجدار. كانت تشير إلى الساعة الخامسة والنصف صباحاً. وغاب الحارس بضع دقائق، ولم يعد المفوض يهتم ببيدرو، الذي كان واقفاً، أمام مكتبه ثم عاد الحارس، وقال:

ـ نعم يا سيدي، هناك صياد يحمل هذا الاسم واليوم بالذات، كان على أرصفة الساحة، ثم عاد بعد قليل .

أشار المفوض بيده وقال للحارس.

ـ اطلق سراح هذا الازعر.

طلب بيدرو الاذن بأخذ سترته، ووضعها تحت ذراعه، وما كان يظن أحد أنه يحمل تحت طياتها صورة «أوغون» واجتاز الغلام والحارس الرواق محدداً، وتركه الحارس على الباب. واجتاز بيدرو ساحة «المحزونين» ودار حول الثكنة القديمة، ووصل الى عاموا دي سيا، والان انطلق راكضاً لكنه سمع خطى خلفه. كان يبدو أن هناك من يتبعه ونظر، فإذ بـ «الاستاذ»، وجواو غراندي، و «القط» يركضون نحوه، وانتظر إلى أن وصلوا اليه، وسألهم وقد ألم به الفضول:

ـ ماذا تصنعون في هذا المكان؟

حك «الاستاذ» رأسه

ـ ألا ترى أننا خرجنا، الآن، في ساعة مبكرة؟ كنا نروح ونجيء هنا، كنا نسير دون فعل أي شيء، حين رأيناك وأنت منطلق ركضاً...

وفتح بيدرو سترته، وأظهر تمثال «أوغون». وأطلق جواو غراندي ضحكة سرور.

ـ كيف فعلت للتغلب عليهم؟

نزلوا على الساحل المنزلق، بسبب الامطار التي هطلت في الليل. وسار بيدرو بالا مع صاحبيه، وهو يروي لهما مغامرات الليلة. وسأل «القط»:

ـ ألم تخف حتى قليلاً؟

أراد بيدرو في البدء أن يقول لا، لكنه اعترف قائلاً:

ـ لكي اقول الحقيقة، لقد استولى علي خوف من المصيبة. والمصيبة هي السجن. لكني تخلصت منها. وضحك لملامح الوجه المرتعب، وجه جواو غراندي. كانت السماء الآن زرقاء، صافية، بلا سحب، والشمس تتلألأ وهناك، من الطلعة، كانوا يرون القوارب التي تخرج من رصيف «السوق».

حيث يبتسم الله مثل زنجي صغير

كان الطفل يسوع اغراء كبيراً جداً. ما كان يقال إن هدا ظهر لأحد ايام الشتاء، كانت الشمس تصب على الشوارع ضياءً لطيفاً، لم يكن يحرق، بل كان دفئه مداعباً مثل يد امرأة. وفي الحديقة الاقرب، كانت الازهار تتفتح في باقات من الألوان. أزهار اللؤلؤ، والورود والقرنفل والدهليات والبنفسج. وفي الشارع كان يبدو ان ثمة عطراً لذيذاً رقيقاً إلى اقصى حد، لكن «سكر الشعير» كان يحس أن هدا العطر ينفذ إلى خياشيمه، ويسكره. وعند باب برتقاليين اغنياء، أكل بقايا غداء كانت شبه مأدبة في حد ذاتها. إن الخادمة التي احضرت له الصحن المليء قد قالت وهي تنظر إلى الشوارع، وإلى شمس الشتاء، والرجال الذين يمرون بدون معاطف:

– إنه نهار جميل.

هذه الكلمات رافقت «سكر الشعير» في الشارع. كان النهار جميلاً، وكان الغلام الصغير تمضي غير مبال، صافراً بلحن سامبا علمه اياه «حبيب الله الطيب»، متذكراً أن الأب جوزيه بيدرو قد وعد بأن يعمل كل ما يستطيعه لادخاله إلى دير للدراسة والعبادة. لقد قال له الأب جوزيه بيدرو أن كل هذا الجمال الهابط، الشامل للأرض والناس، هو هبة من الله، وأنه يجب أن يحمد الله عليه. وراح «سكر الشعير» يتأمل السماء الزرقاء حيث لا بد أن يكون الله الطيب موجوداً وشكره بابتسامة؛ كان يفكر في أن الله هو حقاً طيب. ولدى تفكيره في الله الطيب فكر أيضاً في «فرسان الرمال»، كانوا يسرقون ويقاتلون في الطرقات، ويلعنون، ويشتمون، ويمددون الزنجيات الصغيرات على الرمال، ويجرحون أحياناً بطعنات خنجر أو موسى رجالاً وشرطيين... ومع ذلك كانوا طيبين، وبعضهم أصدقاء بعض. وإذا كانوا يفعلون كل هذه الأشياء، فذلك لأنه ليس لهم أب ولا أم، ولأن حياتهم كانت حياة لا تضمن لهم الرغيف، وكانوا ينامون في مبنى لا سقف له تقريباً. ولو لم يكونوا يفعلون كل تلك الأشياء لماتوا جوعاً، لأنها كانت نادرة المنازل التي تعطي الطعام لواحد منهم، وللآخر تعطي الثياب. والمدينة بكاملها لن تكفي

لاعطائهم جميعاً المأكل والملبس. وفكر «سكر الشعير» بأنهم جميعاً محكوم عليهم بدخول الجحيم، وبيدرو بالا لم يكن يؤمن بوجود الجحيم، وكذلك «الاستاذ» لم يكن يؤمن بذلك. كانا يسخران من «سكر الشعير». أما جواو غراندي، من جهته، فقد كان يؤمن بـ «كساغو» و«اومولو»، وبآلهة الزنوج الذين جاؤوا من افريقيا. إن «حبيب الله الطيب»، الذي كان صياداً شجاعاً، وراقصاً مصارعاً لا مثيل له، كان يؤمن هو أيضاً بآلهة الزنوج، وكان يخلط بينهم وبين القديسين البيض، الذين جاؤوا من أوروبا. وكان الأب جوزيه بيدرو يقول إن هذه المعتقدات هي كلها اوهام وترهات، وأن هذا خطأ، ولكن ليسوا هم «فرسان الرمال»، مسؤولين عنه. وحزن «سكر الشعير» وسط جمال النهار. إذن، فكلهم محكوم عليهم بدخول الجحيم؟ كان الجحيم مكاناً للنيران الابدية، حيث يحترق المحكومون طوال حياتهم، وهذه الحياة لا تنتهي أبداً. وفي الجحيم، يوجد شهداء مجهولون حتى من الشرطة، وحتى من الاصلاحية. وقبل بضعة أيام، اثناء موعظة في كنيسة «لابيداد»، سمع «سكر الشعير» راهباً ألمانياً يصف الجحيم. وعلى المقاعد، كان الرجال والنساء، يتلقون كلمات الراهب النارية وكأنها ضربات سياط. كان الراهب أحمر اللون، والعرق يسيل من وجهه. وكان كلامه مرتبكاً. وعبر هذا الكلام، كان الجحيم يبدو أكثر رهبة أيضاً، والسنة اللهب تلحس الاجساد التي كانت جميلة على الأرض، وقد انصرفت إلى الحب، والايدي كانت رشيقة ماهرة، وقد قامت بالسرقة، وباستعمال الخنجر والموسى. كان الله، عبر خطاب الراهب، هو الله القاضي الذي يعاقب، وليس الله الطيب للنهارات الجميلة التي يصفها الأب جوزيه بيدرو. وإثر ذلك، أوضحوا لـ «سكر الشعير»، أن الله هو الطيبة القصوى، والعدالة القصوى. وغلف «سكر الشعير» حبه لله الطيب بغلالة من الخوف إزاء الله. ومن الآن فصاعداً، سيعيش «سكر الشعير» مقسماً بين الشعورين. كانت حياته الحياة الشقية لولد متشرد، تخلى عنه الأهل والناس، وعلى هذا الاساس، كانت حياته تحكم عليه بحياة خطيئة، وسرقات شبه يومية، وأكاذيب على ابواب الناس الاغنياء، ولهذا السبب، في جمال هذا اليوم البديع، كان «سكر الشعير» يتأمل السماء بعينيه اللتين وسعهما الخوف، وطلب إلى الله الطيب الطيب جداً. (لكنه عادل أيضاً...) الغفران لخطاياه، وخطايا «فرسان الرمال»، رفاقه. ففي البدء، لم تكن الغلطة غلطتهم، وكان الخطأ خطأ الحياة...

كان الأب جوزيه بيدرو يقول إن الغلطة هي غلطة الحياة، ذلك لأنه كان يعلم أن هذه هي الوسيلة الوحيدة ليضمن لهم حياة مبرأة من الآفات والذنوب. ولكن، بعد

ظهر أحد الايام، حيث كان الأب جوزيه موجوداً هناك، وكذلك عامل الميناء، جان دادام، أعلن هذا أن الغلطة هي غلطة المجتمع السيء التنظيم، وغلطة الاغنياء ... وأنه ما دام هذا لا يتغير، فإن الأولاد لن يتمكنوا من أن يصبحوا رجال خير. وأضاف أن الأب جوزيه بيدرو لن يتمكن أبداً من فعل أي شيء لأجل الأولاد، لأن الاغنياء سيمنعونه من ذلك. في ذلك اليوم، أحس الأب جوزيه بيدرو بأسى كبير، وحين حاول « سكر الشعير » تعزيته موضحاً له أنه لا ينبغي اعارة أي انتباه لآراء جان دادام، أجاب الأب وهو يهز رأسه الهزيل:

– هناك احيان اتوصل فيها للتفكير بأنه على حق، وأن كل شيء يجري بالمقلوب. لكن الله طيب، وهو سيتمكن من المداواة...

كان الأب جوزيه بيدرو يعتقد أن الله سيغفر. وكان الأب يريد مساعدة الأولاد. ولما لم يكن يجد، إن لم يكن الوسائل للتوصل إلى ذلك، فعلى الأقل، مع الأسف، جداراً امامه (كان جميع الناس يريدون معاملة « فرسان الرمال » إما كمجرمين، وإما كاولاد يماثلون الأولاد الذين ربوا داخل بيت، وعائلة) كان الأب جوزيه بيدرو يحس بما يشبه اليأس، بل وأحياناً يكون فاقداً الاتجاه، ضائعاً. لكنه كان يأمل في أن الله سيلهمه في يوم من الأيام، وبانتظار ذلك، لم يكن يغيب عن الأولاد، مع نجاحه احياناً في ابعادهم عن أعمال شريرة. بل كان احد أولئك الذين اسهموا في قطع دابر اللواط في الجماعة. وقد شكل هذا احدى التجارب الكبرى في كيفية معاملة « فرسان الرمال ». وطوال ما كان الأب جوزيه بيدرو يردد بأن من الضروري التخلص من اللواط، لأنه خطيئة، ولأنه شيء قذر وشنع، كان الأولاد يسخرون منه خفية، واستمروا في مضاجعة الأولاد الأفتى سناً والأجمل. ولكن، حين قال لهم الأب، يساعده هذه المرة « حبيب الله الطيب » أن اللواط عمل غير جدير بالرجل، وأنه يجعل الرجل شبيهاً بالمرأة، بل وأسوأ من المرأة، اتخذ بيدرو بالا تدابير قاسية، وطرد محبي اللواط السلبيين من الجماعة، وبالرغم من جهود الأب جوزيه بيدرو، لم يقبل بيدرو بالا بعودتهم أبداً.

– اذا عادوا، فستتكرر القذارة، يا ابت.

وقد انتزع بيدرو بالا اللواط من بيئة « فرسان الرمال » كما ينتزع الجراح زائدة دودية ملتهبة من جسم رجل. وكان الأصعب، بالنسبة للأب جوزيه بيدرو، التوفيق بين الأشياء. لكنه كان يتحسس طريقه، ويبتسم أحياناً بارتياح للنتائج، وإن كان جان دادام، رغم كل شيء، يضحك منه، وينادي بأن الثورة وحدها هي التي ستسوي كل هذه الأمور كما ينبغي. وهناك في الأعلى، في المدينة العليا، كان الرجال الاغنياء

والنساء يطالبون بشدة بأن يسجن « فرسان الرمال »، أو أن يجري ادخالهم إلى الاصلاحية، التي هي أسوأ من السجن. وهناك، تحت، على ارصفة الميناء، كان جان دادام يريد التخلص من الاغنياء، وتحقيق المساواة في كل شيء، وإعطاء المدارس للأولاد الصغار وكان الأب، من جهته، يريد اعطاءهم المنزل والمدرسة، والحنان، والرفاهية، بدون الثورة، وبدون التخلص من الاغنياء. ولكن في كل ناحية، كان يقوم حاجز. كان الأب يحس بأنه ضائع، وكان يطلب إلى الله أن يلهمه. وبشيء من الرعب، حين كان يفكر في هذه المسألة، كان يعطي الحق، حتى دون أن يدري، لعامل الميناء جان دادام. وحينئذ كان يلم به، أي الخوري جوزيه بيدرو، الخوف، لأن ذلك لم يكن دروس أساتذته، وكان يصلي طوال ساعات لكي ينير الله طريقه.

بين « فرسان الرمال »، كان « سكر الشعير » المكتسب الكبير للأب جوزيه بيدرو. وقد كانت له سمعة بصفته أكثر اعضاء الجماعة شراً، وكان يروى أنه في أحد الايام غرس خنجره في عنق غلام لم يرد أن يقرضه نقوداً، وكان يزيد غرس خنجره ببطء، دون أن يرتجف، حتى سال الدم، واعطاه الولد آخر كل ما طلبه. ولكن يروى أيضاً أنه غرس موساه أيضاً في جسم « شيكو - الشحم »، حين كان هذا الخلاسي يعذب هو جازف بالدخول إلى المستودع مطارداً الجرذان. ويوم راح الأب جوزيه بيدرو يتكلم عن الله، والسماء والمسيح وعن الطيبة والتقى، أخذ « سكر الشعير » يتغير. كان الله يناديه، وكان يسمع صوته القوي عبر المستودع. وكان يرى الله في احلامه ويسمع نداء الله هذا الذي كان يتكلم عنه الأب جوزيه بيدرو. واتجه بكل كائنه نحو الله، وكان يصلي أمام الصور التي أعطاه اياها الخوري وفي اليوم الأول، قوبل بصفير السخرية في المستودع، فضرب ولداً من الاصغر سناً، وصمت الباقون. وفي اليوم التالي، قال له الأب إنه. أي « سكر الشعير »، قد أساء العمل، وأنه كان عليه أن يتألم من أجل الله، وحينئذ اعطى « سكر الشعير » موساه الجديدة تقريباً إلى الصبي الذي ضربه. وأبداً بعد ذلك لم يضرب أي غلام آخر وكان يتجنب المجادلات والخلافات، وإذا كان لم يتجنب السرقات، فذلك لأنها كانت وسيلتهم للعيش، بل وسيلتهم الوحيدة كان « سكر الشعير » يحس بشدة بدعوة الله، وكان يريد أن يتألم من أجل الله وساعات وساعات، كان يركع في المستودع راقداً على الأرض، وكان يصلي حتى وهو منهالك نعاساً. ويهرب من الزنجيات الصغيرات اللواتي كن يعرضن عليه مجامعتهن على رمال الساحل الساحة لكنه، حينئذ كان يحل الله الطيبة النقية، ويقدم أمله لقاء الآلام التي عاناها الله على الأرض اثر ذلك، جاء ذلك الكشف عن الله المقاضي، محقق العدالة،

(بالنسبة « لسكر الشعير » ، أصبح هذا الاله المنتقم) واجتاح خوف الله قلبه ، واختلط مع حب الله . واصبحت صلواته أقل طولاً ، فكان هول الجحيم يختلط بنعيم الله والمتع التي يعطيها كان يصوم أياماً بكاملها . وأصبح وجهه نحيلاً مثل وجه زاهد متنسك . كانت له عينا صوفي ، وكان يعتقد أنه يرى الله عبر ليالي الرقاد . ولذلك كان يبعد نظراته عن أرداف ونهود الزنجيات الصغيرات اللواتي كن يسرن كأنهن يرقصن ، على أنظار الجميع ، في أزقة المدينة المقفرة . وكان يأمل في أن يصبح يوماً كاهناً لاله ، وأن يعيش فقط للتأمل فيه ، وأن لا يعيش إلا من اجله . وكان حب الله يمنحه الأمل في النجاح . وأن الخوف من الله المنتقم من خطايا « سكر الشعير » كان يجعله يائساً من الخلاص .

وهذا الحب ، وهذا الخوف ، هما اللذان كانا يجعلان « سكر الشعير » يتردد امام هذه الواجهة الزجاجية ، في ساعة الظهر هذه ، الملأى بالجمال . الشمس لطيفة ونيرة ، والازهار تتفتح في الحديقة ، وفي كل مكان يسود الهدوء والسلام . ولكن كانت أجمل بين جميع الأشياء هذه الصورة للحبل الالهي ، مع الطفل يسوع ، التي كانت على رف هذا الحانوت ، ذي الباب الواحد . وفي الواجهة الزجاجية ، صور قديسين ، وكتب صلاة ثمينة التجليد ، ومسابح ذهبية ، وذخيرات فضية . لكن في الداخل ، في آخر الرف الذي يصل إلى الباب ، كانت عذراء الحبل تمد الطفل يسوع نحو « سكر الشعير » ، واعتقد « سكر الشعير » أن العذراء تريد أن تعهد إليه بالله الطيب ، الله الطيب الصغير والعاري تماماً ، الفقير مثل « سكر الشعير » . لقد صنع النحات الولد نحيلاً ، والعذراء حزينة جداً لهزال صغيرها عارضة إياه أمام الأشخاص البدناء والأغنياء . لذلك كان التمثال يبقى في الحانوت ، ولا يباع . إن الطفل يسوع في الصور والتماثيل المعروفة هو دائماً طفل جميل بدين . بهيئة ولد غني ، إله غني . وهو هنا إله فقير ، ولد فقير ، مشابه تماماً لـ « سكر الشعير » ومشابه أكثر أيضاً للاولاد الاصغر في الجماعة ، ومماثل بالضبط لولد في المهد ، البالغ بضعة اشهر فقط من العمر ، الذي ترك يوماً في الشارع ، حيث ماتت امه من نوبة قلبية ، وهي تحمله بين ذراعيها ، والذي احضره جواو غراندي إلى المستودع ، حيث بقي حتى نهاية فترة بعد الظهر (وكان الأولاد يأتون وينتظرون ويضحكون من « الاستاذ » ومن الزعيم ، المنهمكين في تأمين الحليب والماء للطفل الرضيع) . حتى جاءت الماي - دي سانتو آنينها ، وأخذته معها ، مرقدة اياه على صدرها . مع فارق وحيد ، هو أن هذا الطفل هو زنجي ، في حين أن الطفل يسوع هو أبيض . وبالاجمال ، فإن التشابه كامل . إن له وجهاً باكياً ، هذا الطفل يسوع الهزيل والفقير ، بين ذراعي العذراء . وهذه تهديه

إلى « سكر الشعير » ، والمداعبات « سكر الشعير » ، ولحب « سكر الشعير » . وهناك في الخارج ، النهار جميل ، والشمس رحيمة ، والازهار متفتحة . ووحده ، في هذا النهار ، الطفل يسوع جائع وبردان . إن « سكر الشعير » سيأخذه إلى مستودع « فرسان الرمال » وسيصلي لأجله ، وسيعنى به ، وسيغذيه بحبه . الا يظهر للنظر تماماً أنه بعكس جميع التماثيل والصور ، ليس الطفل يسوع محبوساً بين ذراعي العذراء ، وأنه حر بين يديها ، وأنها تقدمه لحنان « سكر الشعير » . وخطا خطوة إلى الأمام وفي داخل الحانوت ، كانت آنسة وحيدة تنتظر الزبائن ، وهي تجرب على شفتيها ماركة جديدة من أحمر الشفاه وليس ما هو أبسط من أخذ الطفل يسوع . ومد « سكر الشعير » قدمه ليخطو خطوة أخرى ، لكن خوف الله اجتاحه . وظل ساكناً بلا حراك . يفكر . وهو في خوفه ، أقسم بأنه لن يسرق الا لكي يأكل ، أو حين تقضي بذلك قوانين الجماعة ، أي القيام بعملية سطو بعينه للقيام بها بيدرو بالا ذلك لأنه كان يقدر أن خيانة القوانين (إنها لم تكتب لكنها كانت مسجلة في ضمير كل ولد من أعضاء الجماعة) إن خيانة قوانين « فرسان الرمال » كانت أيضاً خطيئة . وهو الآن سيسرق الطفل يسوع ، لا لشيء إلا ليكون معه . وليغذيه بحنانه . كانت هذه خطيئته ، لانه لا يفعل ذلك لكي يأكل ، أو لكي يطيع قوانين « فرسان الرمال » كانت هذه خطيئة ، انه يسرق ليس من أجل أن يأكل ، ولا لكي يتدفأ . إن الله عادل ، وسيعاقبه ، وسوف يسلمه لنيران الجحيم المتأججة . وسوف يحترق لحمه ، ويداه اللتان ستأخذان الطفل يسوع ، ستحترقان طوال حياة لن تنتهي أبداً لقد كان الطفل يسوع ملكاً لصاحب الحانوت . لكن هذا لديه اطفال - يسوع كثيرون ، وجميعهم بدناء ومموردون ، كثيرون بحيث أنه لن يشعر بالنقص لفقدان واحد ، نحيل وضعيف البنية جداً ! والآخرون كانوا ملفوفين في أقمشة ثمينة ، دائماً اقمشة زرقاء سماوية لكن من النسيج الغالي الثمن . أما هذا الطفل يسوع ، فكان عارياً كلياً ، وكان يحس بالبرد في بطنه ، كان ناحلاً هزيلاً ، وحتى من النحات لم يحصل على أي حنان . وكانت العذراء تقدمه لـ « سكر الشعير » وكان الطفل حراً بين ذراعيها . إن لدى صاحب الحانوت كثيراً من الأطفال - يسوع ، كثيراً .. فكيف سيشعر بالنقص إذا فقد هذا الطفل يسوع ، الهزيل والعاري ؟ ولعل صاحب الحانوت لن يعلق عليه أهمية . بل ربما سيضحك حين سيعلم بسرقة هذا الطفل يسوع الذي لم يتوصل أبداً لبيعه ، والذي كان حراً بين ذراعي العذراء ، والذي امامه كانت النساء التقيات اللواتي يأتين للشراء يصحن مرتعبات :

- كلا ليس هذا لا ! انه قبيح جداً فليغفر لي الله .. وهو ، فوق ذلك ،

مفصول عن ذراعي سيدتنا العذراء. إنه سوف يسقط على الأرض، وينتهي الامر...

لا، ليس هذا.

وبقي الطفل يسوع هنا. كانت العذراء تقدمه لحنان المارة، ولكن لم يكن احد يريده. لم تكن النساء التقيات يردنه لأجل زاوية مصلاهن في منازلهن، حيث يوجد أطفال - يسوع آخرون، ينتعلون صنادل فضية، ومتوجون بتاج ذهبي، ورأى «سكر الشعير» فقط أن الصغير يسوع جائع وظمآن، وبردان أيضاً، وكان يريد أخذه. لكن «سكر الشعير» لم يكن لديه نقود، كما لم تكن لديه العادة لشراء الأشياء. كان يستطيع أخذه، كان يستطيع أن يعطي الطفل يسوع ما يأكله، وما يشربه، وما يرتديه، كل هذا يستمده من حبه لله. ولكن إن فعل ذلك، أي إن سرق الطفل يسوع، فسوف يعاقبه الله، وسوف تلتهم نار جهنم كل حياة «سكر الشعير» التي لا تنتهي، ويديه اللتين ستأخذان الطفل يسوع ورأسه الذي يفكر في أخذه. وحينئذ تذكر «سكر الشعير» أن النية وحدها تشكل خطيئة، وأن الشخص يخطيء فقط حين يفكر في فعل الخطيئة. لقد قال الاخ الألماني أن الشخص يكون في كثير من الأحيان آخذاً بارتكاب الخطيئة، وهو لا يعرف ذلك، لأنه يخطيء بالفكر، فخاف «سكر الشعير» من الله، وانطلق راكضاً بسرعة، لكي لا يستمر في ارتكاب الخطيئة. لكنه لم يركض زمناً طويلاً، بل وقف عند زاوية الطريق، ولم يستطع أن يبتعد كثيراً عن التمثال. ونظر إلى الواجهات الزجاجية الأخرى، وعلى هذا النحو لم يكن يرتكب الخطيئة. ودس يديه في جيبيه، (كان يمسك بهما ..) وحول سير أفكاره. ولكن الآن كان يمر امامه الرجال العائدين إلى عملهم بعد الغداء، وساورته فكرة: بعد لحظات، سيعود مستخدمو الحانوت الآخرون، وحينئذ سيكون من المستحيل اخذ الطفل يسوع. سيكون ذلك مستحيلاً... وعاد «سكر الشعير» إلى امام مخزن الأشياء الدينية

هنا كان الطفل يسوع، والعذراء التي تقدمه إلى «سكر الشعير». ودقت ساعة جدارية الساعة الواحدة بعد الظهر. لن يلبث أن يحضر المستخدمون الآخرون في الحانوت. وكم سيكونون؟ حتى ولو لم يكن هناك سوى مستخدم واحد، فإن الحانوت صغير، بحيث يصبح مستحيلاً أخذ الطفل يسوع. وبدا له أن العذراء هي التي تهمس له بهذا. والعذراء هي التي تقول له إنه إذا لم يأخذ الطفل - يسوع فوراً، فهو لن يستطيع أخذه بعد ذلك. كأنها تماماً تقول هذا. وبالتأكيد أنها هي، أجل، هي التي جعلت الآنسة تختفي وراء الستار الموجود في عمق المخزن، الذي تخلت الآن عن حراسته. نعم، إنها العذراء التي تمد الآن الطفل يسوع نحو «سكر الشعير» وبمقدار ما

يسمح لها ذراعاها، تدعوه بصوتها اللطيف:

- «خذه واعتن به جيداً... اعتن به جيداً..».

تقدم «سكر الشعير» ورأى الجحيم وعقاب الله، ويداه ورأسه التي تحترق طوال حياة لا تنتهي، لكنه هز نفسه كأنه يلقي عنه بعيداً تلك الرؤيا، وتلقى الطفل يسوع الذي كانت تقدمه له العذراء واسنده إلى صدره، واختفى في الشارع.

لم يكن ينظر إلى الطفل يسوع. لكنه حزر الآن، أن الطفل يسوع، المسنود إلى صدره، يبتسم، وهو لم يعد جائعاً، ولا ظمآن، ولا يحس بالبرد. إن الطفل يسوع يبتسم كما كان يبتسم الزنجي الصغير حين صار في المستودع، وكان يرى أن جواو عراندي كان يعطيه الحليب بالملعقة، بيديه الهائلتي الكبر، في حين كان «الاستاذ» يشده على دفء صدره.

* * *

العائلة

وهكذا ابتسم الطفل يسوع

إن « الشارب اللطيف » هو الذي حكى لبيدرو بالا أن في ذلك المنزل بحي « لاعراسا » يوجد ذهب بمقدار يفقدك العقل. إن صاحب المنزل، كما يبدو، هو حامع تحف، وقد علم « الشارب اللطيف » من أحد اللصوص أنه يوجد في ذلك المنزل غرفة محشوة بالحلى الذهبية والفضية، التي يمكن أن يعود بيعها بثروة كبيرة. وفي فترة قبل الظهر. ذهب بيدرو بالا لمشاهدة المنزل، مع « الشارب اللطيف ». وكان عبارة عن عمارة عصرية وأنيقة، ترجد أمامها حديقة، ومرآب في العمق. وهي مسكن فسيح لأشخاص أغنياء. وبصق « الشارب اللطيف » من بين اسنانه، ورسم ببصقته زهرة على الرصيف، ثم قال:

– والقول إنه في هذا القصر يسكن عجوزان فقط!..

وعلق بيدرو بالا قائلاً:

– كوخ جميل جداً..

وفتحت خادمة الباب الأمامي، وخرجت إلى الحديقة. وفي البهو الذي ظهر للأنظار، شاهدوا لوحات معلقة على الجدران، وعلى الطاولات كانت تماثيل صغيرة، واستغرق بيدرو بالا بالضحك.

– لو أن « الاستاذ » رأى هذا، لأصيب بالجنون.. إذ لم يسبق لي أبداً أن رأيت مثل هذا المقدار من الكتب واللوحات.

– سوف يرسم لوحة وجهية لي، بهذا الكبر... وأشار « الشارب اللطيف » إلى « هذا الكبر » بابعاده يديه احداهما عن الأخرى.

ونظر بيدرو بالا مرة أخرى إلى المنزل، واقترب قليلاً من الحديقة وهو يصفر. كانت الخادمة تقطف الازهار، وكان نهداها النقيان يظهران تحت الثوب المكشوف الرقبة والكتفين (الديكولتيه) لأنها كانت منحنية. كانا نهدان أبيضين، ينتهيان بحلمتين قرمزيتين. تنهد « الشارب اللطيف » إلى جانبه.

– يا له من حمل يا بالا

– سد بوزك.

لكن الخادمة كانت قد رأتهما، وأخذت تنظر اليهما وكأنها تسألهما ماذا يريدان. خلع بيدرو بالا كاسكيته وسأل:

– هل يمكنك أن تعطينا قدح ماء إن سمحتِ. إن الشمس قوية الحرارة.

وابتسم، ماسحاً بكاسكيته جبهته التي كان يسيل عليها العرق. كان شديد الاحمرار، تحت الشمس، وشعره الاشقر والطويل يسترسل على أذنيه بتموجات غير منسقة، وقد نظرت اليه الخادمة بعطف، وإلى جانبه، كان « الشارب اللطيف » يدخن عقب سيجارة، ورجله على حاجز الحديقة الصغير. وخاطبت الخادمة أولاً « الشارب اللطيف » بازدراء

– انزل قدمك من الحاجز يا هذا!

ثم ابتسمت لبيدرو بالا

– سأحضر الماء فوراً..

وعادت مع كوبي ماء، وكانا كوبين لم يسبق ان رأى مثلهما، لشدة جمالهما. وشربا الماء، وشكرها بيدرو بالا:

– شكراً جزيلاً

ثم قال بصوت منخفض: جمال باهر.

أجابت الخادمة، هي أيضاً، بصوت منخفض: - ديك صغير جسور..

– في أية ساعة تخرجين من هنا؟

– يا لك من شخص! إن عندي رجلي وهو ينتظرني في الساعة التاسعة مساءً، عند هذه الزاوية من الشارع.

– حسناً! هذا المساء، سأكون عند الزاوية الأخرى.

وذهبا عبر الشارع، و « الشارب اللطيف » يدخن عقب سيجارته وهو يهوّي وجهه بالقبعة المستديرة، التي كان يحملها، وعلق بيدرو بالا:

– انني جذاب جداً وهذه امرأة ناضجة تماماً...

بصق « الشارب اللطيف » بحدداً من بين اسنانه.

– أيضاً مع هذا الشعر السوي المستعار المليء بالخصلات المجعدة...

رفع بيدرو بالا قبضته في وجه « الشارب اللطيف »:

– دعني من حسدك، أيها الخلاسي المزعج.

وعبر « الشارب اللطيف » الحديث:

- ماذا عن قطع النك؟

- هذا أولاً عمل لأحل « ذي الرجل الرخوة »، غداً سيجد وسيلة للدخول إلى هذا المنزل، لقضاء بضعة أيام فيه. وبعدئذ، سوف يعرف أين توجد أفضل القطع، ونأتي خمسة أو ستة، ونأخذ البضاعة.

- وستفقد طريدتك؟

- الخادمة الصغيرة؟ سوف أنالها هذه الليلة بالذات، وحين تدق الساعة التاسعة، سأكون هناك.

والتفت ونظر إلى المنزل. كانت الخادمة متكئة على الحاجز الحديدي. وحياها بيدرو بالا مودعاً، وردت التحية. وبصق « الشارب اللطيف »:

- يا للشيطان أي حظ لك! لم أر في حياتي مثل هذا الحظ.

في اليوم التالي، حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف قبل الظهر، ظهر « ذو الرجل الرخوة » أمام المنزل. وحين دق الجرس، كانت الخادمة ما تزال تفكر في الليلة التي قضتها مع بيدرو بالا، في غرفتها تحي « عارسيا »، اذ أنها لم تسمع رنين الجرس. ودق الغلام الجرس ثانية. فظهر من نافذة غرفة في الطبقة الأولى من المنزل، رأس وخطه الشيب لسيدة راحت تنظر إلى « ذي الرجل الرخوة »، وعيناها تطرفان

- ماذا تريد، يا بني؟

- يا سيدتي، انني ولد يتيم.

اشارت له المرأة بأن ينتظر، وبعد بضع دقائق، كانت عند البوابة دون أن تسمع كلام الخادمة التي كانت تعتذر لأنها لم تسمع رنين الجرس

وقالت السيدة

- تستطيع أن تتكلم، يا ولدي

كانت تتأمل اسمال « ذي الرجل الرخوة »

- يا سيدتي لم يعد لي أب، ومنذ أيام توفيت أمي إلى رحمة الله...

وأبدى شريطة سوداء على ساعده. وهي ساعدة صنعت من شريطة قبعة « القط » الحديدة - الذي اصابه حينئذ عصب شديد

وعاد « ذو الرجل الرخوة » يقول للسيدة

- ليس لي أحد في العالم، أنا معاق، ولا أستطيع العمل كثيراً ومنذ يومين لم أذق

الطعام، وليس لدي مكان أنام فيه.

كان يبدو وكأنه على وشك البكاء. وكانت السيدة تنظر اليه، متأثرة جداً:

- هل انت معاق، يا بني؟

أظهر « ذو الرجل الرخوة » ساقه العرجاء، وسار امام السيدة مبالغاً في عرجه. وحدقت اليه بعطف:

- بأي شيء ماتت امك؟

- الحقيقة لست أدري. لقد أصيبت المسكينة بمرض لا أعرف اسمه، حمى سيئة ملاقت وجه ربها بعد خمسة أيام. وخلفتني وحيداً في العالم... لو على الأقل كنت أستطيع العمل.. كنت سأتدبر، كنت استطيع أن اتدبر أمري. ولكن مع هذا العرج، لا حيلة لي الا في منزل عائلة... ألا تحتاجون إلى ولد صغير ليقوم بالمشتريات، وليساعد في العمل في المنزل؟ اذا كنتم بحاجة اليّ يا سيدتي...

واذا أن « ذا الرجل الرخوة » اعتبر أنها ما زالت مترددة، أكمل كلامه بوقاحة، وبصوت باك:

- لو انني اردت لانضممت إلى هؤلاء الغلمان اللصوص، إلى « فرسان الرمال ». لكنني أنا، لا آكل من هذا الخبز، انني اريد أن اعمل. ولكن هناك أنني لا استطيع أن أتحمل عملاً كبيراً. أنا يتيم مسكين، أنا جائع..

لكن المرأة لم تكن أبداً مترددة. وكانت تتذكر ولدها الذي مات وهو في سن هذا الغلام. والذي قتل موته كل بهجة عيش مع زوجها، وهذا، على الاقل، كانت لديه مجموعاته من الأعمال الفنية، لكنها، من جهتها لم تكن تملك سوى ذكرى هذا الابن الذي غادرها في وقت مبكر جداً. لذلك كانت تنظر بحنان كبير إلى « ذي الرجل الرخوة » المرتدي الاسمال البالية. وتكلمه بصوت ليس لطفه هو لطف الأيام العادية. كان هناك بعض البهجة في لطف صوتها، وقد اذهل ذلك الخادمة:

- ادخل يا ولدي. لا تقلق. سوف أجد لك عملاً.

ووضعت يداً دقيقة وارستقراطية، يتلألأ فيها خاتم ذو ماسة على رأس « ذي الرجل الرخوة » القذر، وقالت للخادمة:

- يا ماري - جوزيه، اعدي الغرفة القائمة فوق المرآب لهذا الولد. ودليه على قاعة الحمام وأعطيه مشط زاؤول واثر ذلك. اعدي له الطعام.

- هل قبل أن اعد الغداء، يا دونا استير؟

- نعم، قبل. منذ يومين لم يأكل، هذا المسكين الصغير.

لم ينبس « ذو الرجل الرخوة » بكلمة وكان يقوم فقط، بمسح دموعه المنهملة بظاهر يده

قالت السيدة: لا تبكِ، وأخذت تمسح على وجه الولد.

- انك طيبة جداً فليكافئك الله على هذا...

واثر ذلك، سألته عن اسمه، فأعطى أول اسم خطر بباله:

- أوغست...

ونظراً لانه راح يردد الاسم، لذاته لكي لا ينسى أنه يدعى « أوغست » ولم ير بادىء بدء انفعال السيدة التي همست قائلة:

- أوغست، انه نفس الاسم...

وأضافت بصوت عال، لأن « ذا الرجل الرخوة » كان الآن ينظر إلى وجهها المنفعل

- ابني كان أيضاً يدعى أوغست... لقد مات وهو في نفس سنك... ولكن ادخل يا ولدي اذهب واغتسل، لكي تأكل

تبعته الدونا استير، متأثرة. ورأت أن الخادمة كانت تشير لـ « ذي الرجل الرخوة » إلى مكان الحمام، وتعطيه مئزر حمام، وتتجه نحو الغرفة القائمة فوق المرآب، لكي ترتبها (كان السائق قد أخذ عطلته، وكانت الغرفة خالية). اقتربت الدونا استير وقالت لـ « ذي الرجل الرخوة »، الذي كان قد توقف عند باب الحمام

- تستطيع أن تلقي عنك هذه الملابس، وستعطيك ماري - جوزيه ملابس أخرى..

راح « ذو الرجل الرخوة » ينظر، الآن، إلى السيدة التي كانت تبتعد. وكان عاصياً، لكنه لم يكن يعرف اذا كان غاضباً ضدها أو ضد نفسه.

جلست دونا استير امام منضدة زينتها، ولبثت ثابتة العينين، والذي يراها يعتقد أنها تنظر إلى السماء عبر النافذة. لكنها في الحقيقة، لم تكن تنظر إلى شيء، ولم تكن ترى شيئاً كانت تنظر، نعم، ولكن إلى داخل ذاتها، نحو ذكرى سنوات بعيدة، وكانت ترى غلاماً صغيراً في مثل سن « ذي الرجل الرخوة »، وهو، أي ولدها، كان لابساً ثياب بحار، ويركض عبر حديقة المنزل، الذي تركوه بعد موته. كان ولداً ملؤه الحياة والبهجة، وكان يحب الضحك والقفز وحين كان يتعب من الركض مع الهر، ومن الصعود إلى أرجوحة الحديقة، ومن القاء الكرة المطاطية، في الباحة، حيث يكون على الكلب - الذئب (الشيان - لو) أن يلتقطها، كان يأتي ويحيط بساعده عنق الدونا استير،

ويقبلها على وجهها، ويبقى معها، ناظراً إلى الكتب المصورة، متعلماً قراءة الحروف ورسمها. ولكي يبقياه معهما أطول فترة ممكنة، قررت دونا استير وزوجها أن يعلما ولدهما بداية القراءة في المنزل بالذات. وفي أحد الأيام (هنا اغرورقت عينا الدونا استير بالدموع) اصابت الولد الحمى. واثر ذلك، اجتاز النعش الصغير الباب، وكانت الأم تنظر اليه مذهولة العينين، ولم تكن تستطيع أن تفهم أن ولدها قد مات. كانت صورته - في اطار كبير - في غرفتها، ولكن كان يخفيه ستار دائماً، لأنها لم ترد رؤية صورة ولدها مجدداً، لكي لا تجدد عصتها. وحتى الملابس التي كان يرتديها قد جمعت في حقيبة صغيرة، ولم يمسها أحد أبداً بعد ذلك. لكن الآن كانت دونا استير تسحب مفاتيح علبة حلاها

وببطء، ببطء شديد، اتجهت نحو المكان الذي توجد فيه الحقيبة وقربت كرسياً جلست عليه. وفتحت الحقيبة بيديها المرتجفتين، وأخذت تتأمل السراويل والكنزات، و لبزة البحرية، والبيجامات، وقمصان الليل التي كان ينام بها وشدت البزة البحرية على صدرها كما لو كانت تعانق ولدها. وتفجرت دموعها

والآن، جاء غلام صغير فقير ويتيم، يدق بابها. وبعد موت ولدها، لم ترد أولاداً آخرين، بل لم تكن تحب رؤية أولاد الآخرين، ولا أن تلاعبهم لكي لا تؤجج الألم الذي يراود ذكراها ولكن ها هو أحد هؤلاء الأولاد، فقير ويتيم، معاق وحزين. ويقول أنه يسمى « أوغست » مثل ولدها، قد جاء يدق بابها، طالباً الخبز والمأوى وقليلاً من الحنان. لهذا أصبحت لديها الشجاعة لفتح هذه الحقيبة ولأن تخرج منها زي البحار هذا الأزرق، هذه البذلة التي كان يحبها من بين جميع الملابس الاخرى، - ذلك لأنه، بالنسبة للدونا استير، قد عاد ابنها اليوم في صورة هذا الولد المعاق والملابس الاسمال، وهو بدون أم ولا أب. لقد عاد ولدها، ودموعها ليست دموع ألم فقط. لقد عاد ابنها، شاحباً هزيلاً. وجائعاً مع ساق معطوبة، ومرتدياً الاسمال البالية. ولكن عما قريب سيصبح من جديد أوغست السعيد والمرح، أوغست الأعوام المنصرمة، ومن جديد سيأتي ليحيط بساعده عنقها، وليقرأ حروف الابجدية الكبيرة.

نهضت الدونا استير وحملت البزة البحرية الزرقاء. وتناول « ذو الرجل الرخوة » افضل وجبة في حياته، مرتدياً هذه البزة.

فلو أن بدلة البحار قد صنعت لأجله، لما كانت أفضل مما هي عليه الآن. فقد ناسبت تماماً « ذا الرجل الرخوة »، وحين نظر إلى نفسه في المرآة، تعرف إلى ذاته بصعوبة لقد استحم. وقد وضعت الخادمة البريانتين على شعره، وعطراً على وجهه.

وهذه البذلة البحرية كانت رائعة. وراح « ذو الرجل الرخوة » يتأمل نفسه في المرآة. وأمر يده على رأسه، ثم على صدره، مملساً ثيابه، وابتسم وهو يفكر في « القط ». وكان يمكن أن يدفع غالياً لكي يراه « القط » في مثل هذه الاناقة. وكان لديه أيضاً حذاء حديد، ولكن الحقيقة هي أن الحذاء كان يثير قرفه، بعض الشيء، لأن له عقدة شريط، ويشبه قليلاً حذاء المرأة. وكان « ذو الرجل الرخوة » يجد أن من الغريب أن يلبس ـ ثوب بحار، مع حذاء نسائي. واتجه نحو الحديقة ذلك لأنه كان يريد التدخين، فهو لم يسمع أبداً عن التدخين بعد الغداء. وأحياناً لم يكن هناك غداء، ولكن دائماً كان هناك عقب سيجارة ما. وهنا، كان يجب الانتباه، انه لا يستطيع أن يدخن على المكشوف ولو أنهم تركوه في المطبخ، مختلطاً بالخدم. كما كانت الحال في المنازل الأخرى، إلى حيث تم ادخاله لكي يسرق اثر ذلك، لكان في استطاعته التدخين، وأن يعبر عن نفسه بلغة « فرسان الرمال » المختصرة لكن هذه المرة، جرى تحميمه، وألبس ثياباً جديدة، ووضع بريانتين على شعره وعطر على وجهه. واثر ذلك، جرى اطعامه في غرفة الطعام. وأثناء تناول الوجبة، كانت السيدة تحادثه كما لو كان غلاماً صغيراً حسن التربية والآن، أرسلته ليلعب في الحديقة، حيث كان الهر الاصفر المسمى « بيرلوك »[22] يستدفيء في الشمس واقترب « ذو الرجل الرخوة » من أحد المقاعد، وأخرج من جيبه علبة سجائر رخيصة الثمن فهو، لدى تغييره ملابسه، لم ينس علبة الدخان واشعل سيجارة وبدأ يتذوق دفقات الدخان في الوقت نفسه مع تفكيره في حياته الجديدة لقد سبق أن قام بهذا مراراً عديدة: أن يدخل إلى منزل عائلة جيدة كولد فقير، يتيم، ومعاق، وعلى هذا الأساس، كان يبقى في ذلك المنزل الوقت الضروري لكي يستكشف المنزل بصورة كاملة، والمواضع التي خبئت فيها الأشياء الثمينة، والمخارج الملائمة للهرب. وإثر ذلك، كان « فرسان الرمال » يجتاحون المنزل، خلال احدى الليالي. آخذين الأشياء القيمة، وفي المستودع كان « ذو الرجل الرخوة » يبتهج وقد استولى عليه فرح هائل، فرح بأنه قد انتقم، لأنهم في هذه المنازل، إن كانوا يستقبلونه، واذا كان يعطى خبزاً ومأوى، فذلك كما لو أنهم يقومون بواجب مضجر، كان أصحاب المنازل يتلافون الاقتراب منه، ويتركونه في القذارة، وهم لم يصدر منهم أبداً أي كلام طيب. وكانوا ينظرون اليه كأنما يسألوه

(٢٢) « بيرلوك »: أي الخاطف

ـ ملاحظة من المترجم ـ

متى سيرحل، واذا لم يكن تأخر على الرحيل، وفي كثير من الاحيان كانت السيدة التي تأثرت لدى روايته قصته، التي كان يرويها عند الباب بصوت يمزق الاحشاء، واستملته، تظهر علائم واضحة على الندم. وبالنسبة لـ « ذي الرجل الرخوة »، كانت السيدات تستقبله في ندم، لأن « ذا الرجل الرخوة » كان يعتبرهن جميعاً مسؤولات عن وضع جميع الأولاد الفقراء وكان يبغضهن جميعاً، ويبغض أزواجهن وأولادهن، ببغضاء عميقة. وكان ابتهاجه الكبير والوحيد تقريباً، هو أثارته ليأس العائلات بعد السرقة، لدى تفكيرها بأن هذا الغلام الجائع الذي اطعمته كان هو الذي استطلع المنزل وعين لأولاد جائعين آخرين أماكن وجود الأشياء الثمينة.

ولكن هذا المرة، كان الأمر مختلفاً. هذا المرة، لم يترك في المطبخ مع اسماله البالية، وهو لم يترك للنوم في الباحة لقد اعطي ملابس، وغرفة، ووجبة في غرفة الطعام. وقد استقبل كضيف، كضيف محبوب. وهو، أثناء تدخينه سيجارته سراً، كان يتساءل في نفسه لماذا يختبيء للتدخين. انه لا يفهم شيئاً مما يحدث. كان وجهه مهموماً إنه يتذكر ايام السجن، والضربات التي توجه اليه، والاحلام التي لم تكف عن مراودته، وفجأة احس بالخوف، كان يخاف من أنه في هذا المنزل، سيعامل بطيبة، من أن أصحاب المنزل سيعاملونه بطيبة، أجل وهو لا يعرف لماذا هو خائف ونهض، وخرج من مخبأه، وذهب للتدخين تحت نافذة السيدة بالضبط. وهكذا سيرون أنه ولد ضال، وأنه لا يستحق الغرفة والملابس الجديدة، ووجبات في غرفة الطعام. وهكذا سوف يرسلونه إلى المطبخ؛ وسوف يستطيع أن يقوم بنجاح بعمله الانتقامي، وأن يغذي البغضاء في قلبه، ذلك لأنه اذا اختفت هذه البغضاء، فسوف يموت، ولن يبقى لديه أي سبب للحياة. ومرت امام عينيه رؤيا الرجل الذي يرى الجنود ينهالون بالضرب عليه (أي على « ذي الرجل الرخوة »)، فينفجر (أي الرجل) بضحكة فظة. وهذا ما يجب أن يمنع « ذا الرجل الرخوة » دائماً من أن يرى وجه الدونا استير المفعم بالطيبة. وبادرة الأب حزينه بيدرو الحامية له، وتضامن العضلات الاضرابية لعامل الميناء جيان دادام. سوف يبقى وحيداً وبغضاؤه سوف تشملهم جميعاً، بيضاً وزنوجاً، رجالاً ونساءً، أغنياء، وفقراء. لهذا يخشى أن يكون الناس طيبين نحوه.

وفي فترة بعد الظهر، وصل صاحب المنزل راؤول من مكتبه، كان محامياً شهيراً جداً حقق ثروة من مهنته، وهو يقوم بالتدريس في كلية الحقوق، ولكنه فوق كل شيء، كان هاوي مجموعات كان لديه رواق ممتاز من اللوحات، والعملات القديمة، والأعمال الفنية الثمينة. وفي هذه اللحظة، كان « ذو الرجل الرخوة » يتفرج على الصور

في أحد كتب الأطفال، ويضحك في نفسه على الفيل الأبله الذي يخدعه القرد. ولم يره راؤول بل صعد الدرج، ولكن بعد ذلك فوراً، جاءت الخادمة تدعو «ذا الرجل الرخوة» وقادته إلى غرفة الدونا استير، وكان راؤول في القميص، بدون سترة، يدخن سيجارة. ونظر إلى الولد بابتسامة مرحة. ذلك لأن ملامح «ذي الرجل الرخوة» كانت تعبر عن ارتباك لدى دخوله الغرفة.

- ادخل ..

كان «ذو الرجل الرخوة» يترنح، ولا يعرف أين يضع يديه، وقالت له الدونا استير بطيبة

- اجلس، يا بني. ولا تخف

جلس «ذو الرجل الرخوة» على حافة كرسي، وانتظر. وراح المحامي يتفحصه، دارساً وجهه. ولكن كان ذلك بعطف، وكان «ذو الرجل الرخوة» بعد أجوبته على الاسئلة التي لا بد منها. وحكى مرة ثانية القصة التي اختلقها في الصباح، ولكن حين بدأ يبكي بدموع غزيرة. دعاه المحامي للتوقف، ونهض متجهاً نحو النافذة. وفهم «ذو الرجل الرخوة» أن الرجل قد تأثر، ونتيجة منه (أي «ذو الرجل الرخوة») هذه جعلته يعتز. وابتسم في دخيلته، ولكن الآن اقترب المحامي من الدونا استير. وقبلها على الجبين. ثم في شفتيها. وغض «ذو الرجل الرخوة» بصره. وسار راؤول اليه، ووضع يده على كتفه وقال:

- لا تبك بعد الآن. الآن لن تعرف الجوع بعد أبداً. اذهب... اذهب والعب، اذهب وتفرج على الكتب. هذا المساء سنذهب إلى السينما. هل تحب السينما؟

- نعم، يا سيدي

وصرفه المحامي مشيراً بيده. وخرج «ذو الرجل الرخوة»، لكنه رأى قبل خروجه راؤول يقترب من الدونا استير ويقول لها.

- انت قديسة. سوف نجعل منه رجلاً. كانت ساعة المغيب، وأضاءت الانوار، وفكر «ذو الرجل الرخوة» في أن «فرسان الرمال» في هذه الساعة يرتادون المدينة بحثاً عن طعام

ولسوء الحظ، أنه في السينما، حين كان الشاب ينهال ضرباً على الرجل الفظ لم يستطع «ذو الرجل الرخوة» أن يصرخ كما كان يفعل في المرات التي يتمكن فيها من الدخول إلى الرواق الأعلى لسينما «أولمبيا» أو إلى سينما «إيتابا جيب» أما هنا، في سينما «غواراني» الفخمة والمريحة، فكان عليه أن يتابع الفيلم في صمت، وفي لحظة معينة لم يتمكن فيها

من تمالك نفسه فأطلق صفرة، نظر اليه راؤول. صحيح أن المحامي كان يبتسم، لكن المؤكد أيضاً أنه اشار بحركة لكي لا يعود «ذو الرجل الرخوة» إلى الصفير.

وإثر ذلك اصطحبوه لاحتساء الشراب في بار قائم تجاه دار السينما. وفي حين كان يحتسي الشراب المثلج، فكر «ذو الرجل الرخوة» في أنه كاد يرتكب حماقة لا علاج لها حين سأله المحامي ماذا يريد أن يشرب. وكاد يطلب بيرة مثلجة جداً. لكنه تمالك نفسه في الوقت المناسب، وطلب شراب العنبر.

وفي السيارة صعد المحامي إلى المقعد الأمامي لقيادة السيارة، وصعد «ذو الرجل الرخوة» إلى المقعد الخلفي، مع الدونا استير التي كانت تدردش معه. وكانت المحادثة عسيرة على «ذي الرجل الرخوة» الذي كان عليه أن يضبط كلماته وتعابيره التي كانت بذيئة جداً، ومليئة بكلمات فظة. وكانت الدونا استير تسأله عن أمه، وكان «ذو الرجل الرخوة» يجيب بما يستطيع. ويبذل جهداً كبيراً لتذكر التفاصيل التي كان يختلقها لكي لا يفتضح امره في التالي. وفي النهاية وصلوا الى المنزل في حي «غراسا». وقادت الدونا استير «ذا الرجل الرخوة» إلى الغرفة القائمة فوق المرأب.

- ألا تخاف النوم هنا بمفردك؟

- كلا، يا سيدتي

- ذلك لبضعة أيام فقط. وإثر ذلك، سأسكنك فوق في الغرفة التي كانت لولدي أوغست.

- لا داعي لهذا، أيتها الدونا استير. فهذه الغرفة هنا جيدة جداً

وانحنت عليه وقبلته.

- ليلة سعيدة، يا صغيري.

خرجت، وأقفلت الباب. ولبث «ذو الرجل الرخوة» ساكناً بلا حراك، دون أية حركة، حتى دون أن يجيب على التحية المسائية. واضعاً يده على وجهه حيث قبلته الدونا استير. لم يكن يفكر في شيء ولا يرى شيئاً. لا شيء الا في القبلة الحلوة، هذه القبلة التي لم يتلق مثلها من قبل. انها قبلة أم. لا شيء الا القبلة الحلوة على وجهه. وأحس كأن الأرض توقفت عن الدوران في لحظة القبلة هذه، وأن كل شيء قد تغير ولم يعد هناك في الكون بأسره سوى الاحساس اللطيف بهذه القبلة الأمومية على وجه «ذي الرجل الرخوة»

وإثر ذلك، كان رعب احلام السجن، والرجل ذو الصدرة الذي كان يضحك بفظاظة، والجنود الذين ينهالون ضرباً على «ذي الرجل الرخوة» الذي كان يركض

برجله المعاقة حول الغرفة، ولكن فجأة برزت الدونا استير، والرجل ذو الصدرة، والجنود الذين يموتون وسط عمليات تعذيب ليس لها مثيل، ذلك لأن «ذا الرجل الرخوة» كان يرتدي الآن برة بحار، وكان يمسك بيده سوطاً مثل الشاب في السينما.

ومرت ثمانية أيام، وقد جاء بيدرو بالا مراراً عديدة إلى أمام المنزل ليتسقط أنباء «ذي الرجل الرخوة» الذي تأخر في العودة إلى المستودع، لقد مر أكثر من الوقت اللازم كي يعرف «ذو الرجل الرخوة» اماكن الاشياء الثمينة الممكن نقلها، والمخارج التي من شأنها تسهيل الفرار. ولكن بدلاً من أن يرى «ذا الرجل الرخوة» كان بيدرو بالا يرى الخادمة التي كانت تظن أنه جاء من أجلها. وفي أحد الأيام، وكان يحادث هذه الخادمة، أدار بيدرو بالا الحديث بكثير من البراعة، نحو «ذي الرجل الرخوة».

- السيدة التي هنا لها غلام، أليس كذلك؟

- هذا ولد صغير تتبنته. وهو لطيف جداً.

ابتسم بيدرو بالا، لأنه كان يعرف أن «ذا الرجل الرخوة» حين يريد، كان يظهر كأفضل غلام صغير في العالم. وتابعت الخادمة تقول:

- إنه أصغر منك قليلاً، لكنه غلام صغير. إنه ليس داعراً ولا فاسقاً مثلك، انت الذي بدأت بمجامعة النساء... وكانت تضحك من بيدرو بالا قائلة:

- أنت الذي فضضت بكارتي...

- لا تقولي أشياء خبيثة. ثم أن هذه أكذوبة.

- أنا أقسم على ذلك.

كانت تحب أن يكون هذا صحيحاً، وهي، وإن لم تصدق ذلك، ولكن كان يروق لها أن تقوله له. ولم تكن تحس فقط أنها عشيقة الغلام، بل أمه أيضاً. بعض الشيء.

- تعال الليلة لأعلمك طريقة ممتعة..

- هذه الليلة، عند زاوية الشارع... ولكن قولي لي قليلاً: ألا تتدبرين أمرك مع الغلام الذي هنا؟

- إنه لا يعرف حتى ما هو هذا الشيء. إنه ابله صغير، وولد مدلل. انك تتحامق. أنت ترى جيداً أنه ليس من النوع الذي يروق لي.

وفي المرة التالية، أفلح بيدرو بالا في رؤية «ذي الرجل الرخوة» وكان هذا الاخير ممدداً في الحديقة (والقط يمر إلى جانبه)، وكان «ذو الرجل الرخوة» يتفرج على كتاب للصور، ودهش بيدرو بالا حين شاهده لابساً بنطالاً من الكزمير الرمادي، وبلوزة حريرية. وحتى شعره كان مسرحاً! وظل بيدرو بالا فترة فاغر الفم، دون أن

يستطيع الصفير «لذي الرجل الرخوة». وأخيراً تمالك نفسه، وصفّر. وسرعان ما نهض «ذو الرجل الرخوة» على قدميه، ورأى بيدرو بالا في الجانب الآخر من الشارع، وأشار إليه بأن ينتظره واجتاز البوابة. بعد أن تأكد من أن أحداً لا يحوم في تلك الأماكن.

واتجه بيدرو بالا نحو زاوية الشارع وتبعه «ذو الرجل الرخوة». وحين أدركه، ازدادت دهشة بيدرو بالا أكثر أيضاً:

- لعنة الله عليك! انك تفوح منك رائحة طيبة! يا «ذا الرجل الرخوة». أبدى «ذو الرجل الرخوة» هيئة منزعجة، لكن بيدرو بالا تابع قائلاً:

- إنك أكثر أناقة بعشر مرات من «القط». عجباً! فإذا جئت هكذا إلى الكوخ - هكذا كان بيدرو يسمي المستودع - فسوف ينقض الآخرون عليك. إنك تبدو مثل دمية حقيقية..

- لا تلح علي في الطلب... انني اتفحص الأشياء... سيكون الأمر أطوّل مدة، سوف اهرب، وتستطيع أنت أن تأتي مع الآخرين.

- هذه المرة، لست مستعجلاً...

- ذلك لأن الضاعة مقفل عليها بصورة محكمة، هكذا قال «ذو الرجل الرخوة» كاذباً.

- اجهد لتدبير الأمور

اثر ذلك تذكر.

- لقد أساء «الدخيل» التصرف. وقد كاد أن يعترف للشرطة. ولولا دون آنيتها التي اعطته شيئاً ليشربه، ويقوي عزيمته مجدداً، اذن لما عدت رأيته. إنه أكثر هزالاً من سلك حديدي.

وعلى هذا النبأ، استأذن للذهاب، موصياً مرة أخرى «ذا الرجل الرخوة» بأن يستعجل.

عاد «ذو الرجل الرخوة» ليتمدد في الحديقة. لكنه، الآن لم يعد يرى صور الكتاب. إن ما صار يراه، هو «الدخيل». كان «الدخيل» هو من أكثر الذين اضطهدهم «ذو الرجل الرخوة» في الجماعة. وكان ابن اشخاص عرب، ويتكلم بلهجة عربية وطريفة، وكان هذا يتيح المجال لسيل من السخرية من جانب «ذي الرجل الرخوة». لم يكن «الدخيل» قوي البنية، ولم ينجح أبداً في تكوين مكانة بين «فرسان الرمال»، رغم أن بيدرو بالا و «الاستاذ» قد سعوا لاعطائه الوسائل لذلك. وكان

يروق لهم أن يكون بينهم أجنبي أو شبه أجنبي. لكن « الدخيل » كان يكتفي بعمليات نشل واختلاس صغيرة، متجنباً عمليات السطو المجازفة، وكان يحلم بحقيبة بضائع رخيصةٌ يقوم ببيعها لخدم منازل الأغنياء.

كان « ذو الرجل الرخوة » يسيء معاملته بلا شفقة، ويهزأ به، وبلغته الغامضة، وبفقدانه الشجاعة، لكن الآن و « ذو الرجل الرخوة » مضطجع في الحديقة، على العشب الناعم، مرتدياً بدلة جيدة، ومسرح الشعر ومعطراً، وكتاب صور قربه، كان يفكر في « الدخيل » شبه الميت من الجوع، في حين أنه هو، أي « ذو الرجل الرخوة »، يأكل جيداً ويلبس ملابس جيدة، وليس فقط أن « الدخيل » قد لامس الموت، ولكن خلال هذه الأيام الثمانية، ما زال « فرسان الرمال » سيئي الملابس، وسيئي التغذية، ينامون تحت المطر في المستودع الذي لا سقف له تقريباً، أو تحت الجسور. وخلال هذا الوقت، كان « ذو الرجل الرخوة » ينام في سرير جيد، ويأكل مآكل جيدة ولديه أيضاً سيدة تقبله، وتدعوه ولدها، وأحس بأنه خائن لجماعته، كان مشابهاً لعامل الميناء الذي كان يتحدث عنه جان دادام وهو يبصق على الأرض، دائساً عليها بقدمه علامة على الازدراء. إن عامل الميناء هذا، الذي انتقل أثناء الاضراب الكبير إلى الجانب الآخر، إلى جانب الاغنياء، قد حطم الاضراب، وذهب يجمع الرجال من الخارج للعمل على أرصفة الميناء. ولم يعد أبداً أحد من عمال الميناء يصافحه. ولم يعد أحد منهم يعامله كصديق. وإذا كان « ذو الرجل الرخوة » يصنع استثناء في بغضه للجنس البشري، فذلك فقط لصالح هؤلاء الأولاد الذين يشكلون « فرسان الرمال » كان هؤلاء رفاقه وصحبه، وكانوا مماثلين له، وضحايا جميع الآخرين. كما كان يرى « ذو الرجل الرخوة »، وهو يحس الآن بأنه آخذ بالتخلي عنهم، وأنه آخذ في الانتقال إلى الجانب الآخر. عند هذا التفكير، قام بانتفاضة، وجلس. كلا، انه لن يخونهم. قبل كل شيء كان هناك قانون الجماعة، قانون « فرسان الرمال ». والذين يخونون هذا القانون يطردون من الجماعة، ولا ينتصر هم أي شيء طيب في هذا العالم. وما من أحد أبداً خان « فرسان الرمال » بالطريقة التي كاد « ذو الرجل الرخوة » أن يخون بها الجماعة. لكي يتحول إلى ولد مدلل، ولكي يصبح واحداً من الأولاد الذين يبالهم أفراد الجماعة بمزاحهم ونكاتهم. كلا. كلا. أنه لن يخون « فرسان الرمال ». لقد كفته ثلاثة أيام لمعرفة أماكن وجود الأشياء الثمينة في المنزل. لكن الطعام وخزانة الملابس، والغرفة واكثر من الغرفة والخزانة والطعام وحنان الدونا استير جعلته يمضي حتى الآن ثمانية أيام. لقد اشتراه

هذا الحنان، كما اشتري عامل الميناء بالمال. لكنه حين وصل إلى هذه النقطة، تساءل اذا كان سيخون الدونا استير. لقد وضعت ثقتها فيه. هي أيضاً، مثل « فرسان الرمال »، تحتفظ بقانون في منزلها: لم تكن تعاقب الا حين يكون هناك خطأ، وكانت ترد على الخير بالخير. إن « ذا الرجل الرخوة » سيخون هذا القانون. سيرد على الخير بالشر. وتذكر المرات الأخرى حيث، حين كان يفر من منزل لتسليمه لعملية سطو، كان فرح عظيم يستولي عليه. وهذه المرة، لم يكن أي فرح يغني في دخيلته. إن بغضه ازاء الجميع لم يتلاش، هذا صحيح. لكنه كان يستثني أصحاب هذا المنزل لأن الدونا استير كانت تدعوه « ولدي »، وتقبله على خده. كان « ذو الرجل الرخوة » يناضل ضد نفسه. إنه يحب لو استمرت حياته هنا، على هذا النحو. ولكن ماذا سيفيد هذا « فرسان الرمال »؟ إنه واحد منهم، ولن يتمكن أبداً من أن يكف عن كونه واحداً منهم، لأنه في احد الأيام اعتقله الجنود وانهالوا عليه بالضرب، في حين كان رجل ذو صدرة سوداء يضحك ضحكاً فظاً. وصمم « ذو الرجل الرخوة » واتخذ قراره. لكنه راح يتفحص بحنان نوافذ غرفة دونا استير، وهي التي كانت تراقبه لاحظت أنه يبكي.

- أأنت تبكي، يا صغيري؟

واختفت من النافذة، وجاءت اليه؛ وحينئذ فقط، لاحظ « ذو الرجل الرخوة » أنه كان يبكي. وجفف دموعه، وعض يده. وكانت دونا استير قد صارت قربه:

- هل أنت تبكي يا أوغست؟ هل حدث شيء ما؟
- كلا، يا سيدتي. انني لا ابكي.
- لا تكذب يا ولدي. انني أرى ذلك جيداً. ماذا حدث؟ هل انت تفكر في أمك؟

واجتذبته نحوها. وجلست على مقعده، وأسندت رأس « ذي الرجل الرخوة » إلى صدرها الامومي.

- لا تبك. بعد، أمك الآن، لديك ماما صغيرة أخرى، لا تريد سوى خيرك، والتي ستفعل كل شيء للحلول محل تلك الأم التي فقدتها. (... وهو سيفعل لها كل شيء ليحل محل الولد الذي فقدته، هذا ما سمعه « ذو الرجل الرخوة » في دخيلة نفسه)

وقبلته دونا استير على الخد الذي كانت تسيل عليه الدموع.

- لا تبك. وإلاّ أصاب الحزن والغم امك

حينئذ انفرجت شفتا « ذي الرجل الرخوة »، واستغرق في البكاء؛ وبكى زمناً طويلاً. مستنداً الى صدر أمه. وفي حين كان يعانقها، ويستسلم لقبلاتها، كان يبكي

بشدة لأنه سيتخلى عنها ، وأكثر من ذلك أيضاً ، لأنه سوف يسرقها . وربما لن تعرف أبداً أن « ذا الرجل الرخوة » لديه احساس بأنه سوف يسرق نفسه ، كما أنها تجهل أن بكاءه وتحيبه كانا دعوة للمغفرة .

* * *

تدافعت الاحداث بسرعة لأن راؤول اضطر للقيام برحلة إلى ريو دي جنيرو لأجل أعمال قضائية مهمة وفكر « ذو الرجل الرخوة » بأنه لا توجد فرصة أفضل لأجل عملية السطو

وفي فترة بعد الظهر التي ذهب فيها ، راح يتأمل المنزل كله ، وداعب بيرلوك القط ، وتحادث مع الخادمة . ونظر في كتاب الصور . واثر ذلك ذهب إلى غرفة دونا استير وقال لها أنه سيذهب للنزهة حتى شارع كامبوغراندي . وهي ، حينئذ اسرت اليه بأن راؤول سيحضر له دراجة من الريو . وأنه عندئذ سوف يركبها بدلاً من التنزه سيراً على القدمين عبر شارع كامبوغراندي خفض « ذو الرجل الرخوة » عينيه ، لكنه قبل أن يخرج مشى نحو دونا استير وقبلها . كانت هذه أول مرة يقبلها فيها . وسبب هذا فرحاً كبيراً لها . وأضاف بصوت منخفض جداً ، منتزعاً الكلمات من اعماق ذاته :

ـ أنت طيبة جداً .أبداً لن أنسى

خرج ولم يعد . وفي تلك الليلة نام في زاويته بالمستودع . وذهب بيدرو بالا مع فريق إلى المنزل . وأحاط الآخرون بـ « ذي الرجل الرخوة » معجبين بملابسه ، وبشعره المسرح جيداً ، وبالعطر الذي كان يفوح من جسمه . لكن « ذا الرجل الرخوة » قبض على خناق ولد ، وذهب يدمدم متذمراً إلى زاويته وبقي هناك يقرض أظافره . دون أن ينام وكان يحس بالقلق والغصة ، إلى أن عاد بيدرو بالا ، والآخرون حاملين نتاج عملية السطو . وأعلن لـ « ذي الرجل الرخوة » أن عملية السطو هذه كانت أسهل عملية على الاطلاق ، وأنه لا أحد عرف بها في المنزل ، وأن الجميع واصلوا النوم ولعلهم حتى اليوم التالي كانوا لم يكتشفوا السرقة بعد . وكان يظهر الاشياء الذهبية والفضية .

ـ غداً . سيدفع لنا غونزاليس مالاً كثيراً لقاء هذه الأشياء الثمينة ! . .

كان « ذو الرجل الرخوة » يغمض عينيه لكي لا يرى وبعد أن ذهب الجميع للنوم ، اقترب من « القط » :

ـ هل تريد أن تعقد صفقة معي ؟

ـ ما هي هذه الصفقة ؟

ـ اعطيك هذه الملابس ، وتعطيني ملابسك .

نظر اليه « القط » مفعماً بالذهول . لا شك في أن ثيابه أفضل من ثياب جميع أفراد الجماعة ، لكنها كانت ملابس عتيقة ، وهي لا تساوي أبداً قيمة البذلة الجيدة في قماشها الكرمير التي يرتديها « ذو الرجل الرخوة » « إنه مريض » هكذا فكر « القط » في حين كان يجيب

ـ تسألني اذا كنت موافقاً ؟ وهل هذا موضع تساؤل ؟

وتبادلا الملابس . وعاد « ذو الرجل الرخوة » إلى زاويته ، وحاول أن ينام .

في الشارع كان يتقدم الدكتور [٢٣] راؤول ، مع حارسين كان هما الجنديان نفسهما اللذان اشبعا « ذا الرجل الرخوة » ضرباً في السجن . كان « ذو الرجل الرخوة » يركض ، لكن الدكتور راؤول كان يدل عليه بالاصبع ، فأخذه الحارسان إلى نفس غرفة السجن وكان المشهد هو المشهد الدائم : الجنود الذين كانوا يلهون بجعله يركض بساقه العرجاء ، وينهالون عليه بالضرب . والرجل ذو الصدرة الذي كان يضحك . ولكن هذه المرة ، في القاعة ، كانت توجد أيضاً دونا استير التي كانت تنظر اليه بعينيها الحزينتين ، وتقول إنه لم يعد ابنها ، وأنه لص وكانت عينا دونا استير تجعلانه يتألم أكثر مما كانت تؤلمه ضربات الجنود ، وأكثر من ايلام ضحكة الرجل الفظة .

واستيقظ مبللاً بالعرق . وفر من ليل المستودع ، وداهمه الفجر وهو يهيم عبر الرمال

وفي اليوم التالي ، في الليل ، جاء بيدرو بالا ليعطيه النقود التي كانت حصته من القسمة لكن « ذا الرجل الرخوة » رفضها دون أن يعطي تفسيراً . واثر ذلك ، جاء « ذو الكوع الناشف » مع صحيفة تتضمن أخبار لامبياو . وقرأ « الاستاذ » المقال لـ « ذي الكوع الناشف » وراح يتصفح الجريدة . وحينئذ نادى :

ـ يا « ذا الرجل الرخوة » ! يا « ذا الرجل الرخوة » !

هرع « ذو الرجل الرخوة » راكضاً . وتراكض نحوه آخرون ، وشكلوا حلقة . . . وأعلن « الاستاذ » قائلاً :

ـ هذا يخصك ، يا « ذا الرجل الرخوة » .

وقرأ الاعلان التالي في الصحيفة :

(٢٣) الدكتور : بهذا اللقب ، في البرازيل ، يشار ليس فقط إلى الاطباء ، بل يمنح هذا اللقب أيضاً للقضاة والمحامين الخ . وبصورة عامة لكل رجل يراد تكريم علمه

ـ ملاحظة من المترجم ـ

« فالأمس اختفى من الرقم   من شارع   في حي « غراسا »، ولد لأصحاب المنزل، يدعى أوعست. ولا بد أنه ضاع عبر المدينة التي يكاد لا يعرفها. إن في احدى قدميه عرجاً، وهو في الثالثة عشرة من عمره، وهو ححول جداً ويرتدي بدلة من الكزمبر الرمادي. والشرطة تبحث عنه لاعادته إلى ذويه المتألمين، ولكن حتى الآن لم يعثر له على أثر. وسوف تعطي العائلة مكافأة جيدة لمن سيعطي معلومات عن الصغير أوعست، ويعيده إلى منزله.

ظل « ذو الرجل الرخوة » صامتاً. وكان يعض على شفتيه وقال « الاستاذ »:

- إنهم لم يكتشفوا السرقة بعد

أجاب « ذو الرجل الرخوة » أيجاباً بايماءة برأسه. وحين سيكتشفون السرقة لن يعودوا يبحثون عنه كولد ضائع. وكشر بارانداو تكشيرة هرلية وصاح.

- إن أسرتك تبحث عنك، يا « ذا الرجل الرخوة ». إن ماماك تبحث عنك لكي ترضعك.

لكنه لم يعد يقول أي شيء لأن « ذا الرجل الرخوة » قد انقض عليه، شاهراً خنجره وكان يمكن بالتأكيد أن يبقر بطن الزنجي الصغير لو لم يسحبه جواو غراندي و « ذو الكوع الناشف » من يديه. وقد خاف بارانداو كثيراً. وعاد « ذو الرجل الرخوة » إلى زاويته موجهاً نظرة بغضاء إلى الجميع. وأدركه بيدرو بالا، ووضع يده على كتفه:

- انهم يمكن أن لا يكتشفوا السرقة أبداً، يا « ذا الرجل الرخوة ». وأن لا يعرفوا أي شيء عنك   ولا يجب أن تعرض.

- حين سيعود راؤول سوف يعرفون...

واستغرق في بكاء، ونحيب جعلا « فرسان الرمال » مذهولين. إن بيدرو بالا و « الاستاذ » قد فهما وحدهما، وهذا الاخير هز يديه علامة على العجز. وبدأ بيدرو بالا حديثاً طويلاً حول موضوع مختلف جداً. وهناك، في الخارج كانت الريح تجري على الرمال وكان هزيمها مثل شكوى انين.

صباح مثل لوحة

في حين كان بيدرو بالا يتسلق ساحل الجبل كان يسير مفكراً في أنه لا شيء في العالم أفضل من الذهاب هكذا، كيفما اتفق، عبر شوارع باهيا. ان بضعة شوارع فقط هي معبدة بالزفت. لكن الاكثرية الساحقة من شوارع المدينة مرصوفة بالحجارة السوداء. كانت فتيات صبايا يحصين على الشارع من نوافذ المساكن القديمة، ولم يكن احد يستطيع أن يعلم ما اذا كانت هذه هي خياطة رومانتيكية تنتظر مجيء زوج غني، أو اذا كانت مومساً تتأمله عبر شرفة عتيقة جداً، مزينة بأزهار قليلة. وكانت نسوة بحجب سوداء يدخلن إلى الكنائس. وكانت الشمس تضرب على حجارة الطرق أو على اسفلت الجادة، وهي تضيء سطوح المنازل. وعلى شرفة طبقة سفلية كبيرة كانت تنمو أزهار في صناديق. هذه الأزهار كانت ذات ألوان متعددة ومختلفة، والشمس تؤمن لها حصتها اليومية من الضوء. وكانت أجراس كنيسة الجبل في الساحل تدعو النساء المحجبات اللواتي كن يسرن بخطى مستعجلة. وفي وسط الطلعة، كان زنجي وخلاسي منحنيين على أزهار النرد كان الزنجي قد ألقاها وحيا بيدرو بالا، عند مروره الزنجي:

- كيف حالك، أبتها « البومة - البيضاء »؟

- وأنت يا بالا؟ كيف حال هذا الادعاء الصغير؟

لكن الخلاسي كان قد القى ازهار النرد وكان الزنجي مهتماً كلياً باللعبة. وتابع بيدرو بالا طريقه كان « الاستاذ » يرافقه وكان وجهه النحيف ملقى إلى الأمام، وكأنه من المرهق له قهر الطلعة. لكنه كان يبتسم في عيد النهار والتفت بيدرو بالا نحوه، وفاجأ ابتسامته. وكانت المدينة مبتهجة، مغمورة بالشمس. « إن نهارات باهيا تشبه أيام العيد » هكذا كان يفكر بيدرو بالا، الذي استسلم هو أيضاً للبهجة. كان يصفر بقوة، وربت بمرح على كتف « الاستاذ ». وراح كلاهما يضحكان، وبعد قليل، تحول الضحك إلى استغراق شديد فيه بيد أنهما لم يكن في جيوبهما سوى بضعة فلوس قليلة، كانا يرتديان الاسمال البالية، ولا يعرفان ماذا سيأكلان لكن روحيهما

كانتا مليئتين بجمال النهار وبحرية الانطلاق في شوارع المدينة. كانا يسيران ضاحكين بلا سبب، وقد وضع بيدرو بالا ذراعه على كتف «الاستاذ»، ومن حيث كانا، كان باستطاعتهما رؤية السوق ومرفأ «السفن الشراعية»، بل وحتى المستودع القديم حيث ينامان. أمسك بيدرو بالا إلى جدار الطلعة وقال لـ «الاستاذ»:

- عليك أن تصنع لوحة من هذا... إنه جميل جداً.

اقفلت هيئة «الاستاذ»:

- أعرف جيداً أن هذا لن يحصل أبداً...
- ماذا؟
- هناك مرات احفر فيها دماغي...

وراح «الاستاذ» يتأمل المياه هناك، في أسفل، والسفن الشراعية التي تشبه الدمى، والرجال الصغار جداً الذين يحملون أكياساً على ظهورهم.

وتابع كلامه بصوت حاد، وكأن شخصاً ما قد ضربه، قال:

- أنوي أن أصور يوماً كثيراً من الأشياء هنا.
- لديك وسائل ولو أنك دخلت المدرسة.
- ولكن هذا لا يمكن أبداً أن يكون شارعاً بهيجاً، لا...

لم يكن يبدو أن «الاستاذ» قد سمع مداخلة بيدرو بالا. والآن، كانت عيناه تضيعان في البعيد، وبدا أكثر ضعفاً أيضاً.

- لماذا؟

كان بيدرو بالا مذهولاً.

- ألا ترى أن كل شيء جميل؟ كل شيء بهيج.

وأشار بيدرو بالا إلى سطوح المدينة السفلى:

- هناك توجد ألوان أكثر مما في قوس قزح...
- هذا صحيح... ولكن اذا ألقيت نظرة على الناس... بدا لك كل شيء حزيناً ولست اتكلم على الاغنياء. أنت تعرف هذا جيداً. إنني اتحدث عن الآخرين، عن عمال الموانىء، وعن رجال السوق، أنت تعرف... جميعاً بهيئة الجائعين، لا أعرف حتى أن افسر فكرتي. هذا شيء غريب احس به..

لم يعد بيدرو بالا مذهولاً.

- لأجل هذا قاد جان دادام مرات عديدة اضرابات على ارصفة الميناء. وهو يقول أن الاشياء سوف تتغير في يوم من الايام. وسينقلب كل شيء.

- لقد سبق لي أن قرأت هذا في كتاب... كتاب لجان دادام. ولو كنت قد تعلمت في المدرسة، لكان ذلك أفضل. كما تقول. في أحد الأيام، سأكون قد رسمت كثيراً من اللوحات الجميلة. نهار جميل، وناس سعداء يسيرون، ويضحكون، ويتحابون، مثل ناس نارارية، أليس كذلك؟ حسناً، ولكن أين هي المدرسة؟ أنا أريد تماماً القيام برسم مفعم بالفرح، يكون النهار فيه جميلاً، ويكون كل شيء في هذه اللوحة جميلاً. أما أن يكون الناس حزناء، فهذا لا أريده، كلا. إنني أود أن اصنع شيئاً بهيجاً.
- من يدري أنه من الأفضل أن يصنع شيء كما تصنع أنت. فهذا يمكن أن يكون جميلاً، وأكثر تأثيراً.
- ماذا تعرف عن ذلك؟ وماذا أعرف أنا؟ نحن لم نذهب ابداً إلى المدرسة. إني أرغب في رسم صورة الناس، وصورة الشوارع، لكنني لم أذهب أبداً إلى المدرسة. وهناك أشياء كثيرة لا أعرفها...

هدأ «الاستاذ» قليلاً، ونظر إلى بيدرو بالا الذي كان يصغي اليه، ثم تابع كلامه قائلاً.

- هل سبق لك أن ألقيت نظرة على «مدرسة الفنون الجميلة»؟ انها مدهشة جداً، يا عصفي العتيق. لقد تسللت اليها يوماً، ودخلت إلى احدى قاعاتها واختبأت. وكانوا جميعاً هناك، مرتدين بلوزات بيضاء، ولم يشاهدوني. وكانوا يرسمون امرأة عارية، آه لو كنت استطيع يوماً...

ظل بيدرو بالا ساهماً. ونظر إلى «الاستاذ» وكأنه، أي بيدرو، كان يفكر. ثم قال، بلهجة جدية:

- هل تعرف كم يكلف ذلك؟
- ماذا؟
- تكاليف المدرسة؟ والاستاذ؟
- ما هي هذه القصة؟
- سوف نشترك في الدفع، سندفع لأجل دخولك المدرسة...

راح «الاستاذ» يضحك.

- إنك لا تدرك المسألة. هناك تعقيدات كثيرة... لا يمكن، كلا. توقف عن قول حماقات.
- يقول جان دادام أننا سوف نستطيع يوماً الذهاب إلى المدرسة...

وعادا يسيران وبدا أن « الاستاذ » لم يعد يحس ببهجة هذا النهار ـ كما لو أن هذا النهار ابتعد، بعيداً جداً عنه. ولطمه بيدرو بالا:

ـ في يوم من الأيام، أيها الأخ العجوز، سوف تضع كومة من الرسوم في قاعة شارع التشيلي. بدون مدرسة، وبدون أي شيء. لا يوجد واحد من طلاب مدرسة الفنون يرسم الوجوه مثلك... أنت، من هذه الناحية، متفوق..

استغرق « الاستاذ » في الضحك وضحك بيدرو هو أيضاً:

ـ وسوف ترسمني، أليس كذلك؟ وستضع اسمي في أسفل الصورة، هل ستضعه؟ الفارس بيدرو بالا، الفحل، المقدام.

واتخذ وضع مصارع، ماداً ذراعه. وضحك « الاستاذ » وضحك بيدرو هو أيضاً. وسرعان ما انفجر ضحكهما كالشظايا ولم يهدءا إلا للاختلاط بجماعة من المتسكعين الذين تحلقوا حول عازف قيثار. كان الرجل يعزف ويغني لحناً من مدينة باهيا.

حين قالت لي وداعاً

جعلت قلبي صليباً

توقفا وبعد قليل، راحا يغنيان مع الرجل. ومعهم كان الجميع يغنون، كانوا صيادين، ولصوصاً، وعمال موانىء، بل كانت هناك مومس تغني هي أيضاً، وكان الرجل صاحب القيثار منصرفاً تماماً إلى موسيقاه، بل وحتى لم يكن يرى أحداً.

ولو لم يكن الرجل قد نهض ليمضي في طريقه، مستمراً في العزف على القيثار، ومغنياً، لكانا سيتابعان طريقهما نحو المدينة العالية. لكن الرجل انصرف، حاملاً معه بهجة الموسيقى وتفرقت الجماعة، ومر بائع صحف، منادياً على صحف الصباح. وتابع « الاستاذ » وبيدرو بالا في صعود الطلعة، ومن ساحة « المسرح » صعدا شارع « التشيلي » وسحب « الاستاذ » الطبشورة من جيبه، وجلس على الرصيف، وبقي بيدرو إلى جانبه. وحين رأيا الشاب والفتاة قادمين، بدأ « الاستاذ » يرسم. وحقق رسماً، بأسرع ما يمكن. وكان الحبيبان قد اقتربا كثيراً فأخذ « الاستاذ » حينئذ يرسم ملامح وجهيهما. كانت الفتاة تبتسم، لا شك في أنهما خطيبان. لكنهما كانا مستغرقين في حديثهما بحيث لم يلاحظا الرسم وتوجب أن يقترب بيدرو بالا نحوهما:

ـ لا تستحق صورة الآنسة، يا سيدي...

نظر الرجل إلى بيدرو بالا، وكاد يجيبه بوقاحة، حين لاحظت الفتاة رسمة « الاستاذ »، ولفتت نظر الشاب اليها..

ـ ما أجمل هذا..

وراحت تصفق مثل طفلة قدمت لها دمية.

ألقى الشاب نظرة وابتسم وتحول نحو بيدرو بالا:

ـ هل انت الذي رسمت هذا، يا صغير؟

ـ بل أنه صديقي هذا، الرسام « الاستاذ ».

كان « الاستاذ » يضيف بعض اللمسات إلى شارب الرجل، الانيق جداً. ثم راح يكمل رسم وجه الفتاة. وهي حينئذ اتخذت وضع من يجري تصويره، وضحك الخطيبان معاً ثم تعلقت الفتاة بزند حبيبها

وأخرج الرجل محفظته، وألقى قطعة نقود من فئة الالفي ريس. التقطها بيدرو بالا على الطائر. وتابعا طريقهما وبقي الرسم وسط الرصيف، وقد لاحظته عن بعد بعض الاوانس، العائدات من السوق، وقالت احداهن.

ـ لنمض بسرعة، لأن هذه الصورة، هناك، تبدو لي انها اعلان عن فيلم جديد لماريمور ويظهر أنه شاب جميل جداً.. وهو قوي للغاية أيضاً.

وسمع بيدرو بالا و « الاستاذ » ما قالته الفتاة، وقهقها ضاحكين وسارا، يتأبط كل منهما خصر الآخر، يتابعان طريقهما عبر حرية الطرقات

توقفا من جديد امام قصر الحكومة تقريباً. كان « الاستاذ » ينتظر، والطبشورة بيده، أن يخرج « زبون أبله » من حافلة الترام وكان بيدرو بالا يصفر إلى جانبه، عما قريب سوف يملكان النقود الضرورية لدفع ثمن غداء جيد، وأيضاً لشراء هدية لـ « كلارا »، صديقة « حبيب الله الطيب » التي في هذا اليوم عيد ميلادها.

اعطت عجوز قصيرة فلسين ثمن رسمها. وكانت هذه العجوز قبيحة وقد احترم « الاستاذ » قبحها عبر الرسم ولاحظ بيدرو بالا قائلاً:

ـ لو أنك رسمتها بصورة أجمل وأرق، لكانت اعطتك المزيد.

جعل « الاستاذ » يضحك. هكذا مرت فترة قبل الظهر، وكان الاستاذ يرسم وجوه الذين يمرون في الشارع، وبيدرو بالا يلتقط قطع النقود الفضية أو النيكلية، التي كانت تلقى لهما كانت الساعة تعلن الثانية عشرة ظهراً حين ظهر رجل يدخن بمبسم سيجارة يبدو أنه ثمين جداً. وركض بيدرو بالا يبلغ « الاستاذ » منبهاً.

ـ ارسم صورة هذا الابله فهو يبدو غنياً جداً.

وشرع « الاستاذ » يرسم وجه الرجل النحيف، ومبسم السيجارة الكبير جداً، وشعر الرجل المجعد، الذي يبرز خارج القبعة. وكان الرجل يحمل أيضاً كتاباً بيده، وقد ألت

«بالاستاذ» رغبة لا يمكن مقاومتها في رسم الرجل وهو يقرأ كتابه. كاد الرجل يبتعد فاستلفت بيدرو بالا انتباهه:

- انظر إلى صورتك، يا سيدي.

سحب الرجل مبسم السيجارة الطويل من فمه، وسأل بالا:

- ماذا قلت يا ولدي؟

أشار بيدرو بالا إلى الرسم الذي كان يعمل عليه «الاستاذ». كان الرجل يبدو جالساً (رغم أنه لم يكن هناك كرسي، ولا ما شابه، كان جالساً في الهواء) يدخن بمسم السيجارة ويقرأ في كتابه. وكان الشعر المجعد يتطاير خارج القبعة. تفحص الرجل الرسم بانتشاء، وجعل يتأمله من زوايا مختلفة، لكنه لم يكن يقول شيئاً. وحين اعتبر الاستاذ أن العمل قد انتهى، سأله الرجل:

- أين تعلمت فن الرسم، يا عزيزي؟
- ليس في أي مكان .
- ليس في أي مكان؟ وكيف ذلك؟
- هذا مع ذلك صحيح، يا سيدي ..
- وكيف ترسم أنت؟
- أنا أرغب في الرسم، وأوفق، فأرسم.

بدا الرجل غير مصدق. لكن امثلة أخرى بلا شك مثلت في ذاكرته:

- هل تعني القول انك لم تتعلم فن الرسم أبداً؟
- أبداً، كلا، يا سيدي.

وأضاف بيدرو بالا. أستطيع أن أؤكد ذلك، فنحن نسكن معاً، وأنا اعرف ذلك جيداً

- اذن، فهذه موهبة حقيقية.. هكذا همس الرجل.

وعاد يتفحص الرسم، وسحب نفخة طويلة من مبسم سيجارته. وكان الولدان ينظران إلى مبسم السيجارة مسحورين

وسأل الرجل «الاستاذ».

- لماذا رسمتني جالساً وأنا أقرأ كتاباً؟

حك «الاستاذ» رأسه، كما لو أنه كان من الصعب الاجابة. وأراد بيدرو بالا الكلام، لكنه كان متأثراً، ولم يقل شيئاً. وفي النهاية، أوضح «الاستاذ» قائلاً

- فكرت أن هذا يلائمك بصورة أفضل

وحك رأسه مجدداً.

- لكنني لست اعرف حقاً لماذ؟

وهمس الرجل بصوت أكثر انخفاضاً: هذه موهبة حقيقية... قال ذلك بهيئة شخص حقق اكتشافاً.

كان بيدرو بالا ينتظر النقود لا سيما وأن الحارس كان يراقبهم بحذر وريبة. وكان «الاستاذ» يرمق مبسم سيجارة الرجل، الطويل (أي المبسم)، الموشوم، وهو تحفة رائعة، لكن الرجل تابع قائلاً.

- أين تسكن؟

لم يعط بيدرو بالا وقتاً «للاستاذ» لكي يجيب. وكان هو، أي بيدرو، الذي تكلم:

- نحن نقطن مدينة القش ..

دس الرجل يده في جيبه، وسحب منها بطاقة زيارة:

- هل تعرف القراءة؟
- أجل نحن نعرف القراءة، يا سيدي.
- هذه البطاقة تحمل عنواني وأريد أن تأتي وتسأل عني ولعلي استطيع أن أفعل شيئاً من أجلك.

تناول «الاستاذ» البطاقة. وسار الحارس نحوهم. وبيدرو بالا استأذن للذهاب.

- إلى اللقاء يا دكتور.

وكاد الرجل أن يسحب محفظته، لكنه فاجأ نظرة «الاستاذ» إلى مبسم السيجارة فألقى منها السيجارة، وقدم المبسم للولد.

- هذا من أجل صورتي، تعالى وزرني في منزلي.

لكن الولدين انحدرا بسرعة نحو شارع «التشيلي»، لأن الحارس كان قد وصل اليهما تقريباً وكان الرجل ينظر دون أن يفهم، حين سمع صوت الحارس:

- هل سرقا منك شيئاً، يا سيدي؟
- كلا، لماذا؟
- لأنه، نظراً لأن هذين اللصين كانا قربك...
- إنهما ولدان، ثم إن احدهما أظهر استعداداً ممتازاً للرسم

رد الحارس: - إنهما لصان وهما من عصابة «فرسان الرمال».

- «فرسان الرمال»؟ هكذا سأل الرجل وهو يجهد لكي يتذكر. لقد سبق أن قرأت شيئاً في هذا الصدد ألا يتعلق الأمر بأولاد مشردين لقطاء؟

ـ لصوص، نعم، هكذا هم.

انتبه، يا سيدي، حين يقتربون منك. وأنظر إذا لم تكن قد فقدت شيئاً ما...

أشار الرجل بالنفي. ونظر إلى ناحية الشارع. ولكن لم يبق اي اثر للغلامين. وشكر الرجل الحارس، مؤكداً مرة أخرى أنه لم يسرق منه شيء، ونـزل في الطـريـق وهـو يهمس:

ـ هكذا نفقد فنانين كباراً. وهذا الصبي يمكن أن يصبح رساماً عظيماً!

كان الحارس يتأمل في الرجل. وإثر ذلك علق قائلاً لازرار بزته:

ـ محق تماماً من يقول أن هؤلاء الشعراء ممسوسون، فاقدوا العقل...

كان «الاستاذ» يظهر مبسم السيجارة. وكانا قد وصلا إلى خلفية ناطحة سحاب، يوجد فيها (أي الخلفية) مطعم ممتاز. وكان بيدرو بالا يعرف كيف يحصل من الطباخ على بقايا الطعام. ووقفا ينتظران طعامها في الشارع الخالي من المارة. وبعد أن اكلا، قدم بيدرو بالا السجائر، وكان «الاستاذ» يتأهب للتدخين بمبسم السجارة، الذي اعطاه الرجل له. وسعى لتنظيفه.

ـ الحيوان نحيف مثل العصا. ويمكن أن يكون مسلولاً...

ونظراً لأن «الاستاذ» لم يجد لأجل تنظيف مبسم السيجارة شيئاً أفضل من بطاقة زيارة الرجل. فقد فتلها وأدخلها في مبسم السيجارة، وحين انتهى من تنظيفه، رمى الورقة في الشارع. وسأله بيدرو بالا:

ـ لماذ لا تحتفظ بها؟

ـ ولأي شيء؟

واستغرق «الاستاذ» في الضحك. وجاراه بيدرو بالا وملأت ضحكاتها الشارع فترة. كانا يضحكان هكذا، بدون سبب، لمجرد متعة الضحك.

لكن بيدرو بالا استعاد جديته:

ـ كان يبدو أن الرجل قادر تماماً على مساعدتك لتصبح رساماً...

وتناول البطاقة وقرأ اسم الرجل:

وقال: ـ عليك الاحتفاظ بها، فمن يدري؟

خفض «الاستاذ» رأسه:

ـ كف عن البلاهة، يا بالا. انت تعـرف جيـداً أنـه لا يظهـر مـن وسطنـا إلاّ لصوص... ومن ترى يمكن أن يهتم بنا؟ من؟ لا شيء سوى اللصوص، لا شيء سوى اللصوص...

كان صوته يرتفع عالياً؛ وأصبح الآن يصرخ في حقد.

هز بيدرو بالا رأسه بالايجاب، وتركت يده البطاقة التي سقطت في الساقية. والآن م يعودا يضحكان، بل أصبحا حزينين وسط بهجة هذا الصباح المشمس، هذا الصباح المشابه للوحة رسام من «الفنون الجميلة».

كان عمال يمرون ذاهبين إلى عملهم، بعد فطور الفقراء؛ كان هذا هو كل ما يريانه، كل ما توصلا إلى رؤيته في ذلك الصباح.

* * *